قيادة الإمام الصادق (ع)

بسم الله الرحمن الرحيم

قيادة

الإمام الصادق عليه السلام

الكتاب: قيادة الامام الصادق (عليه السلام)
المؤلّف: آية الله السيد علي الخامنئي
المترجم: الدكتور محمد علي آذرشب
الناشر: رابطة الثقافة والعلاقات الاسلامية/مديرية الترجمة والنشر
تاريخ الطبع: (الطبعة الثانية) ١٤١٨ هـ ش ـ ١٩٩٨م

ISBN 964-472-103-9

جميع حقوق الطبع محفوظة

الفهرس

مقدمة المترجم ٧
المدخل: نظرات ثلاثة ١١

الفصل الاول

المسيرة العامة لحياة الأئمة المعصومين ٢١
المرحلة الاولى ٢٧
المرحلة الثانية ٢٨
المرحلة الثالثة ٢٩
المرحلة الرابعة ٣٠

الفصل الثاني

حياة الامام الباقر عليه السلام استمرار منطقي لحياة الامام السجاد عليه السلام ٣٩

الفصل الثالث

المعالم البارزة في حياة الامام الصادق عليه السلام ٦٥
١ ـ تبيين مسألة الامامة والدعوة اليها ٦٧
٢ ـ بيان الاحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليهم السلام
عن رسول الله صلى الله عليه وآله ٨٢
٣ ـ إقامة تنظيم سري سياسي ـ أيديولوجي ٨٨
مستودع السر ٩٧
الباب والوكيل ١٠٠

مقدمة المترجم

لهذه المحاضرة قصّة ..

والقصّة تبين مشهداً من مشاهد الساحة الايرانية قبل انتصار الثورة الاسلامية بكل ما كان فيها من نشاط اسلامي، ومن تحديات وعقبات.

في شهر شوال سنة ١٣٥٣ هـ ـ ش (١٣٩٤ هـ ق) دقّ جرس الهاتف في منزل الاستاذ المحاضر بمدينة مشهد. كان على الخط الاستاذ الشهيد الدكتور محمد مفتح من طهران. بعد تبادل التحايا طلب الشيخ مفتح (رضوان الله تعالى عليه) من صاحب المحاضرة أن يقدم الى طهران في يوم ٢٥ شوال (يوم وفاة الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام) ليلقي محاضرة عن الامام الصادق.

كانت ظروف صاحب المحاضرة صعبة آنذاك، بسبب زحمة الاعمال والدروس وكثرة المراجعات من جميع أرجاء ايران. كان يلقي المحاضرات في مسجد «الامام الحسن» ثم في «مسجد الكرامة» في مشهد انواقعة شرق ايران، ينتقل منها الى غرب ايران ليحاضر في همدان وكرمانشاه. وفي مشهد

يدرّس تفسير ونهج البلاغة والحديث... اضافة الى دروس تخصصية في الفقه واصول الفقه.

كل هذا كان يقوم به في ظروف ضاغطة جدا.. ظروف مالية صعبة، وظروف سياسية قاسية... لقد كان يعيش في فقر مدقع دون أن يعلم بذلك أحد، ودون أن يشكو ذلك لأحد. والسلطة كانت تحصي عليه انفاسه وتتابعه و تراقبه بشدّة. أغلقت «مسجد الكرامة» في هذا العام بالذات فاكتفى بمسجده الصغير «مسجد الامام الحسن» يواصل فيه نشاطه... ثم أعتقلته في شتاء ذلك العام. وبذلك دخل سجنه الخامس في قصة يطول ذكرها.

في مثل هذه الظروف جاء طلب الشيخ مفتح لالقاء محاضرة عن الامام الصادق ﷺ في طهران بمسجد «جاويد» حيث كان الشيخ مفتح يؤم الناس فيه.

اعتذر صاحب المحاضرة عن الحضور للاسباب المذكورة ولعلمه بوجود اساتذة يملأون الفراغ في طهران من مثل الشيخ مفتح نفسه ولكن الشيخ أصرّ.. وأصرّ.. وما كان من المحاضر إلّا الامتثال.

بعد أيام دقّ جرس الهاتف ثانية. وكان الشيخ مفتح على الخط من طهران وقال:

ان الشرطة منعت المحاضرة!

تنفس الاستاذ المحاضر الصعداء، واحسّ بالراحة وحمد الله على ذلك.

ولكن الاستاذ مفتح مالبث أن اتصل ثالثة وقال:

لقد رُفع المنع والحمد لله، ولابدّ أن تحضر في الوقت المقرّر، حاول السيد المحاضر أن يعتذر ولكن الشيخ قال له: لقد أعلنّا زيارة المحاضر في الجامعة، حاول المحاضر أن يعلل بصعوبة الحصول على تذكرة الطائرة. لكن الشيخ أبدى استعداده لتوفيرها... لابدّ من السفر إذن!

في نفس يوم القاء المحاضرة غادر مشهد، وقبل ساعات من بدئها وصل طهران واتجه مباشرة الى المسجد.

فرح الشيخ كثيراً حينما رآه، وكان هو وما يقرب من مائتي شاب مستعدين للصلاة. وفي اثناء اقامة التحق عدد آخر من الشباب فاصبحوا بضع مئات، وبعد دقائق تدفقت افواج الطلبة فجأة على المسجد، بعد انتهاء الدروس في الجامعة.

غصّ المسجد وفناؤه والزقاق المجاور له بالناس... بدأ السيد الاستاذ يلقي محاضرته وبيده أربعون ورقة كتب فيها مذكرات ترتبط بالمحاضرة، واستمر يتحدث وينتحدث والجالسون منشدّون إليه وكأن على رؤوسهم الطير، واستمرت المحاضرة ثلاث ساعات، وخلالها تناول بالشرح بضعاً من الورقات الاربعين التي أعدها مذكرات لمحاضرته. واختتم المحاضرة رافعاً الاوراق الاربعين الى الحاضرين مشيراً إلى أنه بيّن قليلاً من كثير مما أعدّه.

ولم يمض طويلا على هذه الحادثة إذ اعتقل الشيخ مفتح ومنع من الصلاة في مسجد «جاويد» فانتقل بعد الافراج عنه إلى الصلاة في مسجد «قبا».

وهنا لابدّ من التنويه إلى أمر هام وهو: إن السيد الاستاذ حفظه الله القى هذه المحاضرة قبل عشرين عاما، وبعدها كانت له مطالعات ودراسات

واسعة في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام، وربما عنّت له نظرات جديدة، أو تغيّر رأيه في مسألة معينة من المسائل المطروحة في المحاضرة، وكم كنّا نودّ أن نرىٰ رأيه فيها لنحصل علىٰ آخر نظراته قبل أن نقدم علىٰ نقلها إلى اللغة العربية، ولكن عظم المسؤوليات وزحمة الاعمال وتراكمها حال دون ذلك، لذلك نقدمها الى القارىء الكريم كما هي، ففيها من الجديد الشيء الكثير، وفيها من تراثيات الفكر الاسلامي المطروح في ايران قبل انتصار الاسلام ما يهمّ كل متتبع.

ويلاحظ في المحاضرة ان السيد الاستاذ يواجه تيارين طالما واجههما في محاضراته ودروسه وهما: التيار اليساري المتحامل علىٰ الاسلام وعلىٰ رموز الاسلام، والذي يصف رجال الاسلام بأنهم لم يتصدوا للدفاع عن المحرومين والمظلومين بل كانوا سنداً للظالمين والمترفين!! والتيار المهزوم القاعد الذي يحاول أن يجد في حياة ائمة الاسلام ما يبرر قعوده وسكوته، وهذان التياران كان لهما ثقلهما في الساحة الايرانية قبل تنامي الثورة الاسلامية، وكانا يشكلان عقبة أمام العاملين نحو دفع المجتمع علىٰ المسيرة الاسلامية.

الدكتور محمد علي آذرشب

المدخل

نظرات ثلاثة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾[1].

﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[2].

«الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ومن اهتدى بهداه».

ثمة نظرتان خاطئتان بشأن الامام الصادق ﷺ، ناشئتان عن لونين من التفكير؛ ومن الغرب أنهما على اختلافهما تتقاربان في الشكل والمحتوى والمنشأ، بل يمكن القول ان النظرتين تشتركان في بعض المحاور اشتراكا تاما:

النظرة الاولى: نظرة مدافعة يبديها أولئك الذين يخالون أنهم من أتباع

---

١ - الاحزاب: ٢٣.

٢ - الانبياء: ٧٣.

الامام ومواليه.. إنها نظرة شيعة الامام الصادق عليه السلام بالقول، لا بالعمل، وتتلخص بما يلي:

إن الامام الصادق عليه السلام توفرت له ظروف لم تتوفر لامام من قبله ولا من بعده، استطاع أن يستغلها لنشر أحكام الدين، وأن يفتح أبواب مجلسه لطلاب العلم. جلس في بيته، وفتح صدره للمراجعين وتصدّى للتدريس ونشرِ المعارف، وارتوىٰ كل من قصده من طلاب العلم وناشدي الحقيقة. اشترك في مجلس درسه أربعة آلاف تلميذ، وعن طريق هؤلاء التلاميذ انتشرت علوم الامام الصادق، منها العلوم الدينية: كالفقه والحديث والتفسير، ومنها العلوم الانسانية: كالتاريخ والاخلاق وعلم الاجتماع.

وتصدّى الامام لمناقشة المنتمين الى الافكار الدخيلة، والردّ على الزنادقة والماديين والملحدين، مباشرة أو عن طريق تلاميذه، وقارع أصحاب النحل المنحرفة بقوّة. ولكل مجالٍ من مجالات الدين، ربّىٰ كوكبة من الطلبة والمتخصصين.

ويقول أصحاب هذه النظرة أيضاً: إن الامام وحرصا على استمرار هذا المشروع العلمي، اضطر الى عدم التدخل في السياسة، فلم يُقدِم على أي عمل سياسي، بل واكثر من ذلك فانه سلك طريقا يتماشى مع سياسة خلفاء زمانه لاسترضائهم ولاستبعاد أية شبهة يمكن أن تحوم حول نشاطه. لذلك لم يجابههم ومنع أيضا أن يجابههم أحد. وقد تستلزم الظروف أن يذهب اليهم وينال جائزتهم وحظوتهم، وإن حدث أن أساء الحاكم به الظن نتيجة حدوث حركة ثورية أو تهمة لفّقها نمّام يتجه الامام عليه السلام الى استمالة الحاكم

وبمجاملته.

ويورد اصحاب هذه النظرة شواهد تاريخية، من ذلك رواية ربيع الحاجب وامثالها التي تصوّر الامام في مجلس المنصور وهو يبدي الاعتراف بالتقصير واعلان الندم، وتنقل عن الامام عبارات مدح وثناء يبديها تجاه الخليفة المنصور مما لا يشك الانسان في كذب صدورها عن الامام الصادق عليه السلام تجاه طاغية كالمنصور. هذه العبارات تصور المنصور بانه كيوسف وسليمان وايوب وتطلب منه أن يصبر على ما يرى من اساءات الامام او إساءات بني الحسن: «إن سليمان أُعطي فشكر، وإن ايوب أُبتلي فصبر، وإن يوسف ظُلِمَ فغفر، وأنت من ذلك السنخ...»[1].

هذه نظرة تصور الامام عالما، باحثا، واستاذا كبيرا انتهل من بحر علمه ابو حنيفة ومالك و... لكنه كان بعيدا كل البعد عن كل مقاومة لعدوان السلطة على الدين وعن كل ما تتطلبه مهمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر امام السلطان الجائر... كان بعيدا كل البعد عن الثوار من امثال: زيد بن علي ومحمد بن عبدالله والحسين بن علي شهيد فخ، بل عن الجنود المقاتلين مع هؤلاء الثوار، ولم يكن يبدي أي رد فعل تجاه ما يحل بالمجتمع الاسلامي ولا يكترث بما كان يكتنزه المنصور من أموال طائلة، ولا بما كان يعاني منه

---

١ - هذا المضمون نقل في ثماني عبارات اخرى، دون ذكر السند اصلاً، وثمة رواية أُخرى فيها سلسلة رواة غير ان الراوي الاصلي غير معلوم لانه لا يوجد بين الرواة من كان حاضرا في مجلس المنصور. وتوجد رواية واحدة فقط ينقلها الراوي عن الامام الصادق عليه السلام مباشرة بسند غير موثوق به. (راجع: بحار الانوار: ٤٧: ١٨٢، ح٢٨ باب ٦، وقاموس الرجال ٩: ٥٠٩).

ابناء رسول الله في جبال طبرستان ومازندران وفي رساتيق العراق وايران من جوع بحيث لا يجدون ما يسدّ رمقهم، ولا ما يسترهم إذا ارادوا الصلاة جماعة!! ولا يهتزّ بما كان يتعرض له أتباعه من قتل وتعذيب وتشريد وهم صفر اليدين من كل متاع يتنعم به الافراد العاديون من ابناء المجتمع آنذاك!!

في ظن اصحاب هذه النظرة أن الامام الصادق لم يبد أية حساسية تجاه هذا الوضع، بل كان قانعاً بأن يأتيه من مثل ابن ابي العوجاء، فيقارعه بالحجج والبراهين ويغلبه، ويخرج من بينه مهزوماً... دون أن يؤمن طبعاً.

هذه هي صورة الامام الصادق كما يرسمها اصحاب النظرة الاولى.

النظرة الثانية: يحملها اولئك الذين لا يعترفون بامامة الصادق، وهي نظرة متحاملة على الامام ترى انه عليه السلام، وقف تجاه ما كان يحيق بالمجتمع من ظلم موقف عدم اكتراث. فالمجتمع في زمانه كان يضجّ بالمظالم الطبقية والتطغيان السياسي والسيطرة المقيتة على أموال الناس[1] وانفسهم وأعراضهم، واكثر من ذلك على عقولهم ونفوسهم وتفكيرهم ومشاعرهم. حتى لم تعد الامة تتمتع بابسط الحقوق الانسانية، بما في ذلك القدرة على الانتخاب، مقابل هذا كان الطواغيت يتلاعبون بمقدرات الناس كيف ما شاءوا، ويبنون القصور الفارهة مثل قصر الحمراء جوار آلاف الخرائب التي يعيش فيها البؤساء من عامة الشعب.. في مثل هذا المجتمع المليء بألوان التعسف والاضطهاد يتجه الصادق الى البحث والدراسة وتربية الطلبة،

---

١ - حين مات المنصور كان في خزائنه من الاموال النقدية ستمائة مليون درهم واربعة عشر مليون دينار (عصر الازدهار ص ٦٠ - ٧٠).

ويصبّ اهتمامه على تخريج الفقهاء والمتكلمين..!!

إن كلا النظرتين مجحفتان، لا تقومان على أساس ولا تستندان الى دليل واقعي. غير أن النظرة الاولى اشد إجحافاً واكثر ظلما للامام الصادق عليه السلام لانها صادرة عن لسان من يدعي أنه من شيعته واتباعه.

لا أريد أن أنهج هنا اسلوب البحث العلمي المتداول في الدراسات بعرض جميع النصوص الواردة عن حياة الامام الصادق عليه السلام واقارن بينها من حيث المتن والسند لاخرج بنتيجة، فذلك له مجاله في مجالس البحث العلمي.

اريد هنا أن اطرح نظرة ثالثة مقابل تلك النظرتين.. واقرن هذه النظرة بأدلة مستقاة من مصادر موجودة بين ايديكم، كي تستطيعوا ـ مثل حَكَم محايد ـ أن تتطلعوا من خلالها الى الوجه الحقيقي للامام عليه السلام.

وقبل أن ادخل في صميم البحث يلزمني أن أُشير الى أن كلا النظرتين لا تقومان على أساس صحيح موثوق به.

فكما ذكرت أن النظرة الاولى تستند الى عدد من الروايات (اوضحت وضع اسنادها في الهامش) وهذه الروايات تنسجم طبعا مع طالبي الراحة ومحبي العافية، فيتذرعون بها باعتبارها حجة قاطعة انها كافية لان تكون مبررا للانتهاز بين من ذوي النفوس الضعيفة المهزوزة

فهذه الروايات تصور الامام بانه راح يتملق للمنصور لحفظ حياته، مع أنه كان قادراً أن يحتوي الموقف باسلوب حكيم. واذا كان ذلك شأن القدوة فما بالك بالمقتدي؟

نعتقد أن نصَّ هذه الروايات كاف لاثبات زيفها. فالامامُ كان قادراً على دفع شرّ المنصور عنه بطرق أُخرى كما حدث في مواقف عديدة تنقلها روايات موثوقة، فلا دليل إذن على أن يعمد الامام الى هذا الملق الزائف والثناء الكاذب ليضفي على المنصور خصالا ليست فيه ومكانة لا يستحقها. فمكانة الامامة أرفع من ذلك بكثير دون شك. وأسمى من أن تتلوث بمثل هذه المواقف المنحطة.

ومن حيث السند فان تحري الدقة في الرواة يكشف لنا عن أشياء كثيرة، ففي عدد من هذه الروايات نرى الاسناد ينتهي بالربيع الحاجب. والربيع حاجب المنصور! وما أعدله من راو؟! ويظهر من المصادر أن الربيع كان أقرب الناس الى المنصور، واكثرهم زلفة لديه. استوزره المنصور سنة ١٥٣ هـ (٥ سنوات بعد وفاة الامام الصادق عليه السلام)، أي نال رفعة في المقام... (ولعله نال هذا الترفيع ثمنا لما نسبه للصادق عليه السلام من أكاذيب).

مثل هذا الشخص الذي ثبت اخلاصه ووفاؤه لجهاز الخلافة[1] لا يستبعد منه أن يختلق الاكاذيب، فينسب كلام الملَق الى الامام الصادق أو

---

١ – هو ثاني وآخر وزراء المنصور، كان رجلاً ذا دهاء وتدبير ولَه هيبة وفصاحة... بقي في منصب الوزارة حتى آخر حياة المنصور (سنة ١٥٨ هـ)، ويكفيه دليلا على وفائه للمنصور ولبني العباس أنه أنقذ الخلافة العباسية من انفجار كاد يقضي عليها اثناء احتدام الخلاف بين مدّعي وراثة المنصور.

فقد زوّر وصيّة على لسان المنصور في آخر حياته تأمر جميع حكام الولايات بالبيعة للمهدي ابن المنصور، فما كان من طلاب الخلافة الا الاستسلام. (راجع: عصر الازدهار ص ٥٩ ـ ٧٠).

يغيّر كلاماً حادا قاله الامام الى كلام تضرّع والتماس. هذا ليس بغريب على هذا الحاجب، لكن الغريب أن يصدق عاقلٌ قولَ أحد بطانة الخليفة بشأن عدو الخليفة، ومقولة تشيّع هذا المفتري، وهي مقولة تشكل جزءاً من المؤامرة الدنيئة.

والنظرة الثانية ايضاً واهية بنفس الدرجة وغير علمية. انها تشبه أحكام المستشرقين المنطلقة عن غرض أو جهل، ومن روح مادية محضة لا تنسجم اطلاقا مع طبيعة الاحداث الاسلامية، ولقد شاهدنا تلك الاحكام الفجّة التافهة التي تصدر عن بعض المستشرقين تجاه الاسلام وأئمة اهل البيت عليهم السلام كقول احدهم [1] عن الامام الحسن المجتبى أنه باع الخلافة بالمال! وقضى عمره بين العطر والمرأة والترف! وقول مستشرق آخر [2]: إن الاسلام نقل المجتمع من مرحلة الرقيّة الى مرحلة الاقطاع!!

والنظرة الثانية التي نتحدث عنها تشترك مع أقوال هؤلاء المستشرقين في السطحية والتسرّع والمنطلق المادّي.

والطريف أن الوثائق التي يعتمد عليها أصحاب النظرة الثانية ليست سوى ما يلفقه أصحاب النظرة الاولى من الحكام!!

النظرة الثالثة: والآن نبدأ بالنظرة الثالثة بشأن الامام الصادق، وهي نظرة يمكن أن يستنبطها كل ثابت نظر بالرجوع الى المصادر والمراجع. وهذا الاستنباط لا يختص بحياة الامام الصادق وحده، بل يشمل كل أئمة اهل

---

١ – فيليب حتي، تاريخ العرب.

٢ – بطورشفسكي، الاسلام في ايران.

البيت، مع الفارق في خصائص عمل كل منهم حسب ما تقتضيه ظروف الزمان والمكان، وهذا الاختلاف في الخصائص لا يتنافى مع وحدة روح العمل المشترك وحقيقته ومع وحدة الهدف والمسير.

• • •

الفصل الاول

المسيرة العامة لحياة الأئمة المعصومين عليهم السلام

من أجل أن نفهم طبيعة المسيرة العامة لحياة الأئمة[1]، علينا أولاً أن نتبين فلسفة الإمامة. التيار الذي عرف في مدرسة اهل البيت باسم الامامة والذي تتكون عناصره الاصلية من احد عشر شخصا توالوا خلال قرنين ونصف القرن تقريباً، انما هو في الواقع امتداد للنبوة.

فالنبي يبعثه الله سبحانه بمنهج جديد للحياة وبعقيدة جديدة، وبمشروع جديد للعلاقات البشرية، وبرسالة الى الانسانية، ويطوي حياته في جهاد مستمر، وجهد متواصل، ليؤدي مهمة الرسالة الملقاة على عاتقه قدر ما يسمح له عمره المحدود.

وعملية الدعوة يجب أن تستمر بعده كي تبلغ الرسالة أعلى الدرجات المتوخاة في تحقيق الاهداف، ويجب أن يحمل أعباء المواصلة من هو أقرب الناس إلى صاحب الرسالة في جميع الابعاد كي يبلغ بالامانة الى محطة آمنة وقاعدة رصينة ثابتة مستمرة.

---

١ - من وفاة رسول الله ﷺ حتى وفاة الامام الحسن العسكري عليه السلام.

هؤلاء هم الائمة واوصياء النبي، وكل الائمة العظام واصحاب الرسالات كان لهم أوصياء وخلفاء. ومن أجل أن نعرف مهمة الامام، لا بد أن نعرف مهمة النبي، والمهمة يبيّنها القرآن الكريم إذ يقول: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[1].

هذه إحدى الآيات التي تبين علة النبوة، وتبين من جهة أُخرى مهمة الانبياء. فالانبياء ابتعثوا لبناء مجتمع جديد ولاقتلاع جذور الفساد، ولا علان نورة على جاهلية زمانهم وقلب مجتمعاتهم، وعملية التغيير هذه يعبّر عنها الإمام علي عليه السلام في مطلع استلام مهام حكومته بقوله: «...حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم اسفلكم...»[2].

انها عملية صناعة مجتمع على أساس التوحيد والعدل الاجتماعي وتكريم الانسان، وتحرير، وتحقيق المساواة الحقوقية والقانونية بين المجموعات والافراد، ورفض الاستغلال والاستبداد والاحتكار، وافساح المجال للطاقات والكفاءات الانسانية، وتشجيع التعلم والتعليم والفكر والتفكير.. انها عملية اقامة مجتمع تنمو فيه كل عوامل سموّ الانسان في جميع الابعاد الاساسية، ويندفع الكائن البشري فيه باتجاه مسيرته التكاملية على ساحة التاريخ.

هذه هي المهمة التي بعث الله الانبياء من أجلها، ونستنتج من ذلك أن

---

١ - الحديد: ٢٥.

٢ - نهج البلاغة خ١٦، لما بويع في المدينة، وفيها يخبر الناس بعلمه بما تؤول اليه احوالهم.

الامامة، باعتبارها امتدادا لمهام النبوة، تتحمل نفس هذه الاعباء، لو أن رسول الله ﷺ عاش ٢٥٠ عاما، فماذا كان يفعل يا ترى؟ وكيف كان يتحرك على طريق الدعوة؟ نفس هذه العملية نهض بها الائمة. هدف الامامة هو نفسه هدف النبوة، والطريق هو الطريق. أي إيجاد مجتمع اسلامي عادل، والسعي لصيانة مسيرته الصحيحة.

مقتضيات الزمان مختلفة طبعا، وبنفس النسبة يختلف التكتيك والاسلوب، نفس النبي ﷺ كان يعمل في بداية الدعوة باسلوب يختلف عن اسلوبه حين قطع شوطا من الطريق نحو تحقيق هدفه المنشود.

حين كانت الدعوة في بداية الطريق، وكانت محفوفة بألوان التهديدات والتحديات تطلّب الامر تدبيرا خاصا لمواصلة حمل الرسالة. وحين ترسخت قواعد النظام الاسلامي وضرب الاسلام بجرانه في الجزيرة العربية اختلف التدبير والاسلوب... والثابت والباقي هو الهدف الاسمى الذي انزلت الرسالة من اجله. وهو السعي لايجاد مجتمع يستطيع الانسان فيه أن يطوي مسيرته التكاملية في جميع الابعاد، وأن تتفجر فيه الطاقات الخيِّرة والقوى الكامنة الانسانية، ومن ثم صيانة هذا المجتمع ونظامه الاسلامي.

كان أئمة الشيعة يتجهون ـ كالنبي ـ نحو نفس هذا الهدف، نحو إقامة نظام عادل اسلامي بنفس الخصائص وعلى نفس المسير. وفي حالة قيام هذا النظام تتجه الجهود نحو صيانة مسيرته واستمرارها.

ما الذي تتطلبه اقامة نظام اجتماعي أو مواصلة مسيرة هذا النظام؟ تتطلب اولا ايديولوجية موجّهة وهادية ينبثق عنها ذلك النظام وتصوغه

بصياغتها. ثم تحتاج ثانيا الى قوة تنفيذية تستطيع أن تشق الطريق وسط الصعاب والمشاكل والعقبات نحو تحقيق الهدف. نعرف أن ايديولوجية الائمة هي الاسلام. والاسلام رسالة البشرية الخالدة... رسالة تحمل في مضمونها عناصر بقائها وخلودها[1].

وبملاحظة هذه الامور، نستطيع بسهولة أن نفهم المنهج العام لائمة أهل البيت واوصياء النبي الاكرم ﷺ.

هذا المنهج ذو جانبين متلازمين: الاول يرتبط بالعقيدة، والثاني بتوفير القدرة التنفيذية والاجتماعية. ففي الجانب الأول تتجه جهودهم وهمهم الى نشر مفاهيم الرسالة وبلورتها وترسيخها، والكشف عن الانحرافات التي تصدر عن المغرضين والمنحرفين، وبيان الاطروحة الاسلامية لما يستجدّ من أُمور، واحياء ما اندثر من معالم الرسالة بسبب اصطدامها مع مصالح ذوي القدرة والنفوذ، وتوضيح ما خفي على الاذهان العاديّة من كتاب الله العزيز وسنّة نبيّه.. فمهمة الجانب الاول تتلخص إذن بصيانة الرسالة الاسلامية حيّة بنّاءة متحركة على مرّ الاجيال.

وفي الجانب الثاني، كانوا يسعون، وفقا لما تقتضيه الظروف السياسية والاجتماعية والعالمية في المجتمع الاسلامي، الى إعداد المقدمات اللازمة

---

١ – من تلك الخصائص تشريع النظام وفق المتطلبات الاساسية الثابتة للانسان، والمرونة التي تسمح باستقطاب العناصر العلمية والمنطقية من كل مكان ومن كل نوع. (مع الاحتفاظ بالاتجاه المبدئي للرسالة وبشرط الانسجام مع نظرة الرسالة الى الكون والحياة).

لاستلام زمام قيادة الحكم في المجتمع بأنفسهم بشكل عاجل، أو التمهيد لكي يستلمها على المدى البعيد من يواصل مسيرتهم في المستقبل.

هذا موجز هدف حياة الائمة الاطهار، وهذه هي الخطوط العامة لاهدافهم. من أجلها عاشوا، ومن اجلها استشهدوا.

وإذا كان ما وصلنا من تاريخ حياة الائمة لا يثبت ما ذهبنا اليه، فان عقيدتنا في الائمة كافية لان تصوّر حياتهم بهذا المنظار لا غير، فما بالك إذا كان التاريخ يشهد بما يقنع كل باحث أن حياة ائمة آل البيت كانت في هذا الاتجاه.

مسيرة الامامة استمرت منذ رحلة رسول الله ﷺ في شهر صفر سنة ١١ هـ حتى وفاة الامام الحسن العسكري ﷺ في ربيع الاول سنة ٢٦٠ هـ وخلال هذه السنين طوت المسيرة اربع مراحل كان للأئمة في كل منها موقف متميز تجاه حكام المجتمع الاسلامي:

المرحلة الاولى: مرحلة السكوت، أو مرحلة التعاون مع الحاكم.

تميزت هذه المرحلة بأن المجتمع الاسلامي الوليد كان محفوفا باخطار الاعداء الذين تربصوا بالاسلام من الخارج بعد أن أحسوا بخطر الرسالة عليهم، وكان هناك الاعداد الغفيرة من جماعات حديثة العهد بالاسلام لا تطيق أن ترى تشتتنا في المجتمع الاسلامي، وكل ثغرة في جسد الامة تشكل تهديداً الاساس المجتمع الاسلامي ووجوده.

ومن جانب آخر لم يكن منحنى الانحراف قد ارتفع بحيث لم يعد قابلا

للتحمل بالنسبة لشخص مثل اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام الذي هو أحرص الناس على سلامة الرسالة وسلامة المجتمع الاسلامي، ولعل هذه الحالة التي حدثت في المجتمع الاسلامي هي التي أشار اليها رسول الله صلى الله عليه وآله حين اوصى تلميذه الفذّ بالصبر عند وقوعها.

نقد استوعبت هذه المرحلة الامام علي عليه السلام منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تولّيه الخلافة. وقد شرح الامام موقفه في هذه المرحلة خلال الكتاب الذي وجههُ الى أهالي مصر مع مالك الاشتر لما ولّاه إمارتها إذ جاء فيه:

«فأمسكت يدي، حين رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الى محق دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت إن لم أنصر الاسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هدما تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم... فنهضت في تلك الاحداث...»[1].

حين عزفت عنه الولاية سكت في سبيل الاسلام، وحين واجه المجتمع أخطارا جسيمة قام ينافح عن الاسلام والمجتمع الاسلامي هاديا وموجها وعاملا في المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية. وفي نهج البلاغة وسيرة علي عليه السلام ما يدل بيقين على طبيعة تحرك الامام خلال هذه الفترة.

المرحلة الثانية:

مرحلة استلام الحكم. وهذه استغرقت اربعة اعوام وتسعة أشهر من خلافة أميرالمؤمنين عليه السلام. وبضعة اشهر من خلافة ولده الحسن عليه السلام.

---

١ - الرسالة ٦٢ من نهج البلاغة.

ومع كل ما اكتنف هذه المرحلة من آلام وهموم ومشاكل ومصاعب تكتنف عادة كل حكومة ثائرة، فانها سجلت أنصع الصفحات وأروعها في تاريخ الحكومة الاسلامية بما قدمته من طريقة انسانية في التعامل، ومن عدل والتزام دقيق باحكام الاسلام بابعاده المختلفة في ادارة المجتمع الاسلامي، هذا الى جانب الحزم والصراحة والجرأة في التطبيق واتخاذ المواقف.

هذه المرحلة من تاريخ الامامة كانت النموذج الذي دعا ائمة اهل البيت عليهم السلام خلال القرنين التاليين الى تطبيقه في الحياة السياسية والاجتماعية. وأتباع مدرسة اهل البيت منشدّون باستمرار الى تلك الفترة التاريخيّة، ينشدون استعادتها في حياتهم، ويتخذونها أساسا في تقويم أنظمة زمانهم.

وبهذا المعيار يدينون الانظمة المنحرفة عن النهج الاسلامي، كما كانت هذه الفترة تجربة ودرسا لحكومة اسلامية ثورية تماما في مجتمع عصفت به الاهواء والانحرافات. وكانت حالة المجتمع هذه قد القت عبءاً ثقيلا ومسؤولية كبيرة على الائمة التالين.

المرحلة الثالثة:

هي التي استوعبت السنوات العشرين بين صلح الامام الحسن عليه السلام سنة ٤١ هـ وشهادة الامام الحسين عليه السلام سنة ٦١ هـ.

بعد صلح الحسن عليه السلام بدأ نوع من العمل شبه سرّي هدفه إعادة القيادة الاسلامية الى اصحابها الحقيقيين، اذ كان الامر يتطلب التريّث ريثما تنتهي

مدة حكم معاوية، وخلال هذه المدة القصيرة توجهت الجهود البناءة للتمهيد الى المرحلة التالية[١].

المرحلة الرابعة:

هي التي نحتاج الى ان نقف عندها ولو قليلا، لانها هي التي تعنينا في دراسة حياة الامام الصادق عليه السلام. في هذه المرحلة التي استمرت قرابة قرنين، تواصلت مسيرة الامامة ضمن خطة بعيدة المدى لتغيير المجتمع وفق نظرة الاسلام في جميع المجالات بما في ذلك القيادة السياسية. كانت مفعمة بالانتصارات والانتكاسات، ومقرونة بنجاح باهر في مجال العمل الفكري والعقائدي، وممتزجة بالوان الاساليب الرائعة في العمل التكتيكي المناسب، ومزدانة بأسمى وأروع مظاهر الاخلاص والتضحية والتفاني والعظمة الانسانية على الطراز الاسلامي.

هذه المرحلة بدأت من محرم سنة ٦١ هـ بعد استشهاد الامام الحسين بن علي عليه السلام وبدء امامة علي بن الحسين عليه السلام، وفي هذه المرحلة نشط الائمة ـ كما ذكرنا ـ في الحقل الايديولوجي ومكافحة الانحرافات والتحريفات التي خلفتها مراكز القدرة والاذهان الجاهلة، الى جانب العمل على المدى البعيد لاقامة حكم اسلامي ينتهج القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله ويتمثل نموذج حكومة علي عليه السلام.

---

١ ـ شرحت بالتفصيل طبيعة هذه الفترة في محاضرات متعددة مستندا الى الوثائق التاريخية المتوفرة.

واضح أن تنفيذ منهج ثوري أصيل عميق في مجتمع مرت عليه سنون من الانحراف الفكري والعملي يستدعي تكتيكا دقيقا وتخطيطا اساسيا. فالمجتمع الاسلامي آنئذ قد مرّت عليه فترة حكومة معاوية بكل ما فيها من تخدير وتحريف وتزييف وابتعاد عن الروح الرسالية وحرمان من القيادة المبدئية، مما أدّى الى تفاقم خطر الانحراف، حتى إنّ الامر آل الى مقتل ريحانة رسول الله ﷺ في كربلاء على مسمع ومرآى من هذا المجتمع المرعوب المشلول المهزوم أمام الارهاب الاموي.

لابدّ إذن من عمل كبير يعيد الى هذا المجتمع معنوياته المفقودة وشخصيته المسحوقة، انها لعملية تغيير كبرى يحتاجها هذا المجتمع كي يعود مرّة اخرى مؤهلا لحمل الرسالة والنهوض بأعباء المسؤولية الثقيلة. لابد من ثورة كالتي اعلنها رسول الله في المجتمع الجاهلي ثم تولّى قيادة هذا المجتمع انطلاقاً من هذه الثورة.

ان اعادة الحياة الثورية وتجديدها عملية لا تقل صعوبة واهمية عن خلق الثورة وايجادها. عملية التجديد الثوري بحاجة الى ايمان عميق، وعزم راسخ، وعقل مدبر، وفكر يقظ وواع وفعّال. فمن الذي يحمل عبء هذه المسؤولية؟!

تلك الفئة التي ما استطاعت أن تسير وراء الامام الحسن ﷺ وما ارتفعت الىٰ مستوىٰ مناصرة الامام الحسين ﷺ غير قادرة دون شك على عملية الاحياء هذه. والاعتماد علىٰ هذه الفئة ليس وراءه الا الفشل والخسران.

إن تجربة «التوابين» ثم قيام المختار وابراهيم بن مالك خير دليل على ما ذهبنا اليه.

والامام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يقف الآن بعد حادثة عاشوراء على مفترق طريقين:

إما ان يعمد الى دفع أصحابه نحو حركة عاطفية هائجة، ويدخلهم في مغامرة، لا تلبث شعلتها، بسبب عدم وجود المقومات اللازمة فيهم، أن تخمد وجذوتها أن تنطفىء وتبقى انساحة بعد ذلك خالية لبني امية يتحكمون في مقدرات الامة فكريا وسياسيا.. أو أن يسيطر على العواطف السطحية والمشاعر الفائرة، ويعد المقدمات للعملية الكبرى، المقدمات المتمثلة في الفكر الرائد والطليعة الواعية الصالحة لإعادة الحياة الاسلامية الى المجتمع، وأن يصون حياته وحياة المجموعة الصالحة لتكون النواة الثورية للتغيير المستقبلي، ويبتعد عن أعين بني أمية ويواصل نشاطه الدائب على جبهة بناء الفكر وبناء الافراد، وبذلك يقطع شوطا على طريق الهدف المنشود، ويكون الامام الذي يليه أقرب الى هذا الهدف.

فأي الطريقين يختار؟

لا شك أن الطريق الاول هو طريق التضحية والفداء، لكن القائد الذي يخطط لحركة التاريخ ولمدى أبعد بكثير من حياته لا يكفي أن يكون مضحيا فقط، بل لابد أيضا أن يكون عميقا في فكره واسعا في صدره، بعيدا في نظرته. مدبرا وحكيما في اموره.. وهذه الشروط تفرض على الامام انتخاب الطريق الثاني.

والامام علي بن الحسين ﷺ اختار الطريق الثاني مع كل ما يتطلبه من صبر ومعاناة وتحمّل ومشاق، وقدّم حياته على هذا الطريق (سنة ٩٥ هـ).

وقد صوّر الامام الصادق ﷺ وضع الامام الرابع ودوره الرائد بقوله:

«ارتد الناس بعد الحسين ﷺ الا ثلاثة: ابو خالد الكابلي، ويحيى بن أم الطويل، وجبير بن مطعم، ثم إن الناس لحقوا وكثروا، وكان يحيى بن أم الطويل يدخل مسجد رسول الله ﷺ ويقول: ﴿كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾[1].

هذه الرواية تصوّر حالة المجتمع الاسلامي بعد مقتل الحسين ﷺ.

إنها حالة الهزيمة النفسية الرهيبة التي عمّت المجتمع الاسلامي ابان وقوع هذه الحادثة. فمأساة كربلاء كانت مؤشرا على هبوط معنويات هذا المجتمع عامة، حتى شيعة اهل البيت، هؤلاء الشيعة الذين اكتفوا بارتباطهم العاطفي بالائمة بينما ركنوا عملياً الى الدنيا ومتاعها وبريقها.. ومثل هؤلاء كانوا موجودين على مرّ التاريخ، وليسوا قليلين حتى يومنا هذا.

فمن بين الآلاف من مدعي التشيّع في زمن الامام السجاد ﷺ بقي ثلاثة فقط على الطريق.. ثلاثة فقط لم يرعبهم الارهاب الاموي ولا بطش النظام

---

١ – بحار الانوار، ط: الاسلامية، ج٤٦ ص١٤٤، وفي رواية اخرى أضيف جابر بن عبدالله الانصاري الى هؤلاء الثلاثة. وفي رواية اخرى بدل جابر بن عبدالله ورد ذكر سعيد بن المسيب المخزومي، وفي رواية اخرى أضيف الى هؤلاء جميعا سعيد بن جبير، وبدلا من جبير بن مطعم ذكر اسم محمد بن جبير بن مطعم (رجال الكشي، ط: مصطفوي، ص ١١٥)، ويرى العالم الرجالي المعاصر المحقق الشوشتري أن اسم جبير بن مطعم في هذا الحديث محرف من حكيم بن جبير بن مطعم: (قاموس الرجال، ج٩، ص٣٩٩).

الحاكم، ولم يثن عزمهم حبّ السلامة وطلب العافية، بل ظلوا ملبين مقاومين يواصلون طريقهم بعزم وثبات.

هؤلاء لم ينجرفوا مع تيار المجتمع المنجرّ كالرعاع وراء ارادة الحاكم الظالم، بل كان يقف الواحد منهم وهو يحيى بن ام الطويل في مسجد المدينة ويخاطب مدعي الولاء لأهل البيت، معلنا براءته منهم ـ كما مرّ ـ ويستشهد بما قاله ابراهيم عليه السلام واتباعه لمعارضي زمانه: ﴿كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾[1].

أراد ابن ام الطويل بتلاوته هذه الآية المباركة أمام مدّعي الولاء لأهل البيت عليهم السلام أن يعلن الانفصال التام بين الجبهتين: جبهة الرساليين الملتزمين، وجبهة الخلود الى الارض والانحطاط إلى مستوى الاماني الرخيصة والانشدادات المادية التافهة. وهو انفصال يرافق كل الدعوات الالهية. والامام الصادق عليه السلام عبّر عن هذا الانفصال بين الجبهتين بقوله: «من لم يكن معنا كان علينا» أي من لم يكن في جبهة التوحيد كان في جبهة الطاغوت، وليس ثمة منطقة وسط بين الاثنين، ولا معنى للحياد في هذا الانتماء.

يحيى ابن أم الطويل هذا المسلم الحقيقي لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله بصرخته هذه يعلن الانفصال بين الذين يُرضون أنفسهم بالولاء العاطفي بينما هم قابعون في توقعة مصالحهم الشخصية وغارقون في مستنقع ذاتياتهم الضيقة، وبين اولئك الملتزمين فكرا وعملا بالامام.

هذا الانفصال يعني طبعا الترفّع عن الانجرار وراء الاكثرية الضالّة، ولا

---

١ ـ الممتحنة: ٤.

يعني اهمال هؤلاء الضالين. من هنا اتجهت هذه المجموعة الصالحة الى انتشال من له قابلية التحرر من الاصر والاغلال، وكثرت بالتدريج هذه الفئة المجاهدة الصابرة، والى هذا يشير الامام الصادق عليه السلام في قوله المذكور آنفا: «ثم إن الناس لحقوا وكثروا». وبذلك واصل الامام السجاد عليه السلام نشاطه. وكان هذا النشاط وبعض المواقف الاخرى التي سنذكرها مما ادّى الى استشهاده، واستشهاد بعض المقربين من أتباعه.

لم أر في حياة الامام السجاد عليه السلام ما يدل على مواجهة صريحة مع الجهاز الحاكم، والحكمة كانت تقتضي ذلك ـ كما ذكرنا ـ لانه لو اتخذ مثل تلك المواقف التي نشاهدها في حياة الامام موسى بن جعفر عليه السلام وبعده من الائمة تجاه حكام عصره لما استطاع أن يحقق ما حققه من دفع عملية التغيير دفعة استطاعت أن توفّر للامام الباقر عليه السلام فرصة نشاط واسع، بل لصُبّ هو والمجموعة الصالحة الملتفة حوله.

في مواقف نادرة نلمس من الامام عليه السلام رأيه الحقيقي من السلطة الحاكمة، ولكن ليس على مستوى المواجهة، بل على مستوى تسجيل موقف للتاريخ وليجعل المحيط القريب منه على قدر من العلم بعمله وحركته.

من تلك المواقف، رسالة تقريع صارخة وجهها الامام عليه السلام الى رجل دين مرتبط بجهاز بني أمية هو «محمد بن شهاب الزهري». ونستطيع أن نفهم من الرسالة أن الامام يخاطب بها الاجيال على مرّ العصور، لا الزهري. لأن الزهري لم يكن بالشخص الذي يستطيع أن يتحرر من الاغلال التي تشدّه الى موائد بني أمية وقصاعهم ولهوهم ومناصبهم وجاههم. ولم يستطع

بالفعل. لقد قضى عمره في خدمتهم، ودوّن كتابا، ووضع حديثا ليتزلف اليهم[١].

هذه الرسالة إذن وثيقة توضيح موقف الامام ﷺ من أوضاع زمانه، ونصها موجود في كتاب «تحف العقول»[٢].

وثمة وثيقة اخرى هي عبارة عن رسالة جوابية وجهها الامام ﷺ الى عبدالملك بن مروان بعد ان ارسل الثاني رسالة يعيّر فيها الامام بزواجه من أمته المحررة، وقصد ابن مروان بذلك أن يبين للامام ﷺ أنه محيط بكل ما يفعله حتى في اموره الشخصية. كما اراد أيضا أن يذكّر الامام بقرابته منه طمعا في استمالته.

والامام ﷺ في رسالته الجوابية يوضح رأي الاسلام في هذه المسألة. ويؤكد أن امتياز الايمان والاسلام يلغي كل امتياز آخر. ثم باسلوب كناية في غاية الروعة يشير الامام الى جاهلية آباء الخليفة، بل لعله يشير ايضا الى ما عليه الخليفة بالذات من جاهلية إذ يقول له: «فلا لؤم على امرىء مسلم، إنما اللؤم لؤم الجاهلية».

وحين قرأ الخليفة الاموي عبارة الامام ﷺ أدرك معناها تماما، كما أدرك المعنى ابنه سليمان إذ قال له: «يا أمير المؤمنين لَشَدَّ ما فخر عليك علي بن الحسين!!».

---

١ – راجع: أجوبة مسائل جار الله، للسيد شرف الدين العاملي، ص ٥٩ و ٦٠، وكذلك: دراسات في الكافي والصحيح، ص ٢٦١.

٢ – تحف العقول عن آل الرسول ٢٧٢ ـ ٢٧٧ ط: جماعة المدرسين – قم.

والخليفة بحنكته السياسية يرد على ابنه بما يوحي أنه أعرف من الابن بعاقبة الاصطدام مع إمام الشيعة فيقول له: «يا بنيّ لا تقل ذلك فانها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر وتغرف من بحر، إن علي بن الحسين يا بني يرتفع من حيث يتصنّع الناس»[1].

ونموذج آخر من هذا المواقف ردّ الامام ﷺ على طلب تقدم به عبدالملك بن مروان، كان عبدالملك قد بلغه أن سيف رسول الله ﷺ عند الامام. فبعث اليه من يطلب منه أن يهب السيف للخليفة، وهدده إن أبىٰ بقطع عطاء بيت المال عنه. فكتب اليه الامام ﷺ:

«اما بعد فان الله ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون، والرزق من حيث لا يحتسبون، وقال جلّ ذكره: ﴿إن الله لا يحب كل خوّان كفور﴾ فانظر أينا اولى بهذه الآية»[2].

وفي غير هذه المواقف نرى الامام السجاد ﷺ يتحرك بهدوء وباستتار في اتجاه تربية الافراد وصنع الشخصية الاسلامية وفق مدرسة أهل البيت ومحاربة الانحرافات و... وبذلك قطع في الواقع الخطوة الاساسية الاولىٰ على طريق تحقيق هدف مدرسة أهل البيت المتمثل بإقامة المجتمع الإسلامي المستظل بحكومة اسلامية صالحة على نموذج حكومة رسول الله ﷺ وعلي بن ابي طالب ﷺ. وكما ذكرنا من قبل لم يسلم الامام ﷺ واتباعه رغم هذا النهج ـ المسالم على الظاهر ـ من بطش الجهاز الاموي وتنكيله. فمن أتباعه

---

١ – بحار الانوار ج٤٦ ص١٦٥، ط: بيروت، نقلاً عن الكافي ج ٥ ص ٣٤٤.

٢ – المصدر نفسه ص ٩٥.

من قتل بشكل فظيع، ومنهم من سجن، ومنهم تشرّد بعيدا عن الاهل والديار، والامام عليه السلام نفسه في مرة واحدة على الاقل سيق مقيدا بالاغلال في حالة مؤلمة من المدينة الى الشام، وتعرّض مرات لألوان الاذى والتعذيب. ثم دسّ الخليفة الاموي الوليد بن عبدالملك له السمّ وأستشهد سنة ٩٥ هـ[1].

• • •

١ - حياة الامام السجاد عليه السلام بابعادها الجهادية وما اكتنفها من احداث من اروع مقاطع حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام وتحتاج الى مقال مستقل.

الفصل الثاني

حياة الامام الباقر عليه السلام
استمرار منطقي لحياة الامام السجاد عليه السلام

اصبح اتباع أهل البيت مجموعة متميزة ذات وجود مستقل. ودعوة أهل البيت التي اعترتها وقفة واحتجبت وراء ستار سميك بسبب حادثة كربلاء وما أعقبها من حوادث دموية كوقعة الحرّة ونورة التوابين وبسبب بطش الامويين، قد اصبح لها وجود منتشر واضح في كثير من الاقطار الاسلامية خاصة في العراق والحجاز وخراسان، واصبح لها «تنظيم» فكري وعملي. وولت تلك الايام التي قال الامام السجاد عنها أن أتباعه ما كانوا يزيدون فيها على عشرين شخصا. واضحى الامام الباقر يدخل مسجد النبي في المدينة فيلتف حوله جمع غفير من أهل خراسان وغيرها من اصقاع العالم الاسلامي، يسألونه عن رأي الاسلام في مختلف شؤون الحياة. ويفد عليه امثال طاووس اليماني وقتادة بن دعامة وابو حنيفة وآخرون من أئمة المذاهب الفقهية لينتهلوا من علم الامام أو ليحاجّوه في أمور مختلفة. وبرز شعراء يدافعون عن مدرسة اهل البيت. ويُعبّرون عن أهدافها، منهم الكميت

الذي رسم في هاشمياته أروع لوحة فنية في تصوير الولاء الفكري والعاطفي لآل بيت رسول الله ﷺ. وتناقلت الالسن هذه الروائع الادبية وحفظتها الصدور. ومن جهة أخرى فان خلفاء بني مروان أحسّوا خلال هذه الفترة بنوع من الطمأنينة، وشعروا بالاستقرار بعد أن استطاع عبدالملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) خلال فترة حكمه التي استمرت عشرين عاماً أن يقمع كل المعارضين. وقد يعود شعور الخلفاء المروانيين في هذا العصر بالأمن والاطمئنان الى أن الخلافة وصلتهم غنيمة باردة، لا كأسلافهم الذين كدحوا من أجلها مما ادىٰ الى انشغالهم باللهو والملذات التي تصاحب الشعور بالاقتدار والجاه الجلال.

مهما يكن الامر فان حساسية خلفاء بني مروان تجاه مدرسة أهل البيت قد قلت في هذا العصر، واصبح الامام واتباعه في مأمن تقريبا من مطاردة الجهاز الحاكم.

وكان من الطبيعي أن يقطع الامام خطوة رحبة في ظل هذه الظروف على طريق تحقيق أهداف مدرسة أهل البيت، ويدفع بالتشيع نحو مرحلة جديدة. وهذا ما يميّز حياة الامام الباقر عليه السلام.

ويمكن تلخيص حياة الامام الباقر خلال الاعوام التسعة عشر من امامته (٩٥ ـ ١١٤ هـ) بما يلي:

ابوه الامام السجاد عليه السلام عندما حضرته الوفاة أوصى أن يكون ابنه محمدا إماماً من بعده في حضور سائر ابنائه وعشيرته وسلّمه صندوقاً... تذكر الروايات أنه مملوء بالعلم.. وتذكر أن فيه سلاح رسول الله ﷺ وقال له:

«يا محمد هذا الصندوق فاذهب به الى بيتك. ثم قال: أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكنه كان مملوءاً علماً»[١]. لعل هذا الصندوق يرمز الى أن الامام السجاد سلم ابنه محمداً مسؤولية القيادة الفكرية والعلمية (فالصندوق مملوء بالعلم) وسلمه مسؤولية القيادة الثورية (سلاح النبي).

ومع بدء الامام واتباعه بنشاطهم الواسع في بث تعاليم أهل البيت، يتسع نطاق انتشار الدعوة، ويتخذ ابعاداً جديدة تتعدى مناطقها السابقة في المدينة والكوفة، وتجدها شبوعا في اصقاع بعيدة عن مركز السلطة الاموية، وخراسان في مقدمة تلك البقاع كما تحدثنا الروايات التاريخية[٢].

ان الواقع الفكري والاجتماعي المزري للناس كان يدفع الامام واتباعه نحو حركة دائبة لا تعرف الكلل والملل من أجل تغيير هذا الواقع والنهوض بالواجب الالهي إزاء هذا الانحراف.

إنهم يرون غالبية الناس قد خضعوا للجو الفاسد الذي أشاعه بنو أمية، فغرقوا الى الاذقان في مستنقع حياة آسنة موبوءة، حتى أضحوا كحكامهم لا يفقهون قولاً، ولا يصيخون لنصيحة سمعاً «إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا»[٣].

ومن جهة اخرى يرون دراسات الفقه والكلام والحديث والتفسير تنحو

---

١ - بحار الانوار ٤٦: ٢٢٩ باب ٤ عن البصائر ٤: ٤٤.

٢ - من ذلك رواية ابي حمزة الثمالي يقول: «حتى أقبل ابو جعفر عليه السلام وحوله اهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج» (بحار الانوار ٤٦: ٣٥٧ ط: بيروت)، وانظر حديث أحد علماء خراسان مع عمر بن عبدالعزيز، وفيه اكثر من عبرة ودلالة. (بحار الانوار ٤٦: ٣٦٦).

٣ - من حديث الامام الباقر عليه السلام في ارشاد الشيخ المفيد ٢٨٤ وبحار الانوار ٤٦: ٢٨٨.

منحى استرضاء الطاغوت الاموي وتلبية رغباته. ومن هنا فان كل ابواب عودة الناس الى جادة الصواب كانت موصدة لولا نهوض مدرسة اهل البيت بواجبها «وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا»[1].

اتجهت مدرسة أهل البيت فيما اتجهت الى تقريع اولئك الذين باعوا ذممهم من العلماء والشعراء، في محاولة الى ايقاظ ضمائرهم أو ضمائر اتباعهم من عامة الناس.

نرى الامام يقول للكميت الشاعر مؤنباً:

«امتدحت عبدالملك؟» قال: «ما قلت له يا إمام الهدى، وإنما قلت يا أسد والاسد كلب، ويا شمس والشمس جماد، ويا بحر والبحر موات، ويا حيّة والحيّة دُوبية منتنة. ويا جبل وإنما هو حجر أصمّ. فتبسم الامام وأنشد الكميت بين يديه:

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام[2].

وبهذه الميمية يضع الحدّ الفاصل بين الاتجاه العلوي والاتجاه الاموي في المكانة والسيرة في صورة فنية رائعة خالدة.

وعكرمة تلميذ ابن عباس المعروف وصاحب المكانة المرموقة في المجتمع

---

١ - بحار الانوار ٤٦: ٢٨٨.

٢ - المناقب ٤: ٢٠٧ وهذه الميمية من هاشمياته وفيها يخاطب أئمة اهل البيت عليهم السلام فيقول:

ساسة لا كمن يرى رعية النا س سواء ورعية الانعام

وهو بيت له دلالته الكبيرة.

آنذاك. يذهب لمقابلة الامام. فيؤخذ بهيبة الامام وشخصيته ووقاره ومعنويته وفكره. فيقول له: «يا ابن رسول الله لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره. فما أدركني ما أدركني آنفاً».

فقال له الامام: «إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه»[1].

ومن الابعاد الاخرى لنشاط مدرسة أهل البيت في هذه المرحلة سرد ما احاط بأهل بيت رسول الله وأتباعهم من ظلم واضطهاد وقتل وتشريد وتعذيب في محاولة لاستثارة عواطف الناس المينة، وتحريك ضمائرهم الرخوة، واستنهاض عزائمهم الراكدة، وتوجيههم وجهة ثورية حركية.

عن المنهال بن عمر قال: كنت جالساً مع محمد بن علي الباقر عليه السلام اذ جاءه رجل فقال له: كيف انتم؟ فقال الامام الباقر عليه السلام:

«أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن؟ إنما مثلنا في هذه الامة مثل بني اسرائيل. كان يذبّح أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا زعمت العرب أن لهم فضلا على العجم. فقالت العجم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد منا عربيا. قالوا لهم: صدقتم. وزعمت قريش أن لها فضلا على غيرها من العرب. فقالت لهم العرب من غيرهم: وبما ذاك؟ قالوا: كان محمد قرشيا. قالوا لهم: صدقتم. فان كان القوم صدقوا فلنا فضل على الناس لأنا ذرية محمد، واهل بيته خاصة وعترته، لا يشركنا في ذلك غيرنا. فقال له الرجل: والله إني لأحبكم أهل البيت. قال:

---

١ - بحار الانوار ٤٦: ٢٥٨.

فاتخذ للبلاء جلبابا. فوالله إنه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي. وبنا يبدو البلاء ثم بكم، وبنا يبدو الرخاء ثم بكم»[1].

فما إن بدت على الرجل علامات الهياج جرّاء استثارات الامام حتى سارع الامام الى رسم الطريق أمامه. إنه طريق مفروش بالدماء والدموع، والامام رائد المسيرة على هذا الطريق يصيبه البلاء أولاً قبل أن يصيب شيعته.

وفي دائرة أضيق نرى أن علاقة الامام بشيعته تتخذ خصوصيات متميزة. نراه بين هؤلاء الاتباع كالدماغ المفكر بين اعضاء الجسد الواحد، يغذيهم ويمدهم بالحيوية والحركة والنشاط باستمرار.

وتتوفر بايدينا وثائق تبين هذا الارتباط متمثلا باعطاء المفاهيم والتعاليم الصريحة لهؤلاء الاتباع، وبتنظيم مترابط محسوب بينهم.

منها وصية الامام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي في اول لقاء له بالامام أن لا يقول لأحد أنه من الكوفة، وليظهر بمظهر رجل من أهل المدينة، وبذلك يعلّم هذا التلميذ الجديد، الذي لمس الامام فيه قدرة على حفظ الاسرار، درس الكتمان.. وهذا التلميذ الكفوء اصبح بعد ذلك صاحب سرّ الامام. ويبلغ به الامر مع الجهاز الحاكم أن يقول عنه النعمان بن بشير:

«كنت ملازماً لجابر بن يزيد الجعفي، فلما أن كنّا بالمدينة، دخل على أبي جعفر عليه السلام فودّعه وخرج من عنده وهو مسرور، حتى وردنا الأخيرجة (من نواحي المدينة) يوم جمعة فدلفنا الزوال فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل

---

١ ـ بحار الانوار ٤٦: ٣٦٠ رواية ١ ـ باب ١٠٠ نقلاً عن امالي الطوسي: ٩٥.

طوال آدم (أسمر) معه كتاب فناوله، فقبّله ووضعه على عينيه، واذا هو من محمد بن علي (الباقر) الى جابر بن يزيد وعليه طين أسود رطب. فقال له: متى عهدك بسيّدي؟ فقال: الساعة. فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة. قال: ففكّ الخاتم وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتى أتى على آخره. ثم أمسك الكتاب فما رأيته ضاحكا ولا مسرورا، حتى وافى الكوفة.

يقول النعمان بن بشير: فلما وافينا الكوفة ليلا بتّ ليلتي، فلما أصبحت أتيت جابر الجعفي إعظاما له فوجدته قد خرج على وفي عنقه كعاب قد علقها وقد ركب قصبة (كما يفعل المجانين) وهو يقول: أجد منصور بن جمهور.. أميرا غير مأمور وأبياتا من نحو هذا فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئا، ولم أقل له، وأقبلت أبكي لما رأيته، واجتمع عليّ وعليه الصبيان والناس، وجاء حتى دخل الرّحبة، وأقبل يدور مع الصبيان، والناس يقولون: جُنّ جابر بن يزيد. فو الله ما مضت الأيام حتى ورد كتاب هشام بن عبدالملك الى واليه أن انظر رجلا يقال له: جابر بن يزيد الجعفي فاضرب عنقه وابعث اليّ برأسه. فالتفت الى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفي؟ قالوا: أصلحك الله كان رجلا له علم وفضل وحديث، وحج فجنّ وهو ذا في الرحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم. قال: فأشرف عليه فاذا هو مع الصبيان يلعب على القصب. فقال: الحمد لله الذي عافاني من قتله»[1].

هذا نموذجٌ من نماذج الارتباط بين الامام وخاصةِ أتباعه، يوضح دقة

---

١ – بحار الانوار ٤٦: ٢٨٣ نقلاً عن الكافي ١: ٣٩٦.

التنظيم والارتباط، ويبين كذلك نموذجا لموقف السلطة الحاكمة من هؤلاء الاتباع، ويؤكد أن الجهاز الحاكم لم يكن غافلا تماما عن علاقة الامام باتباعه المقربين. بل كان يراقب هذه العلاقات ويحاول اكتشافها ومجابهتها[1].

وبالتدريج يبرز جانب المجابهة في حياة الامام الباقر وفي حياة الشيعة ليسجل فصلا آخر في حياة أئمة اهل البيت عليهم السلام.

النصوص التاريخية الموجودة بين ايدينا وهكذا الروايات الحديثية لا تتحدث بصراحة عن حركة مقاومة سياسية حادة ينهض بها الامام. وهذا يعود الى عوامل كثيرة منها جوّ البطش والتنكيل المهيمن على المجتمع مما يفرض عنصر التقية بين اتباع الامام الذين هم المطلعون الوحيدون على حياة الامام السياسية.. ولكن ردود الفعل المتشدّدة التي يبديها العدو تبين عمق العمل الجهادي. فحين يتخذ جهاز حاكم مقتدر كجهاز عبدالملك بن مروان، الذي يعتبر اقوىٰ حاكم أموي، ضد الامام الباقر عليه السلام كل أسباب الشدّة والحدّة، فان ذلك يدل دون شك على إحساس الخليفة بالمخاطر التي تواجهه جراء حركة الامام واتباعه. لو كان الامام منهمكا فقط بنشاط علمي، لا ببناء فكري وتنظيمي، فان الجهاز الحاكم لم يكن من مصلحته أن يتشدّد مع الامام. لأن ذلك يدفع بالامام وباتباعه الى موقف ساخط متشدّد

---

١ - يؤيد هذه الحقيقة، اضافة الى قضيّة جابر ونظائرها، رواية عبدالله بن معاوية الذي يسلّم الامام الباقر رسالة تهديد من حاكم المدينة (بحار الانوار ٤٦: ٢٤٦، الباب ١٦ الرواية ٣٤).

كالذي اتخذه التاثر العلوي شهيد فخ الحسين بن علي من السلطة.

باختصار موقف السلطة المتشدّد من الامام الباقر يمكن فهمه على أنه رد فعل لما كان يمارسه الامام من عمل معارض للسلطة.

من الاحداث الهامة في اواخر حياة الامام الباقر عليه السلام استدعاء الامام الى الشام عاصمة الخلافة الاموية. فالخليفة الاموي أراد أن يستوثق من موقف الامام تجاه الجهاز الحاكم فأمر باعتقاله وارساله مخفورا الى الشام. (وفي بعض الروايات أن الحكم هذا شمل ابنه الشاب أيضا جعفر الصادق).

يؤتى بالامام الى قصر الخليفة. وهشام أملى على حاشيته طريقة مواجهة الامام لدى وروده. تقرر أن يبتدىء الخليفة ثم تلبه الحاشية بالقاء سيول التهم على الامام. وكان يستهدف في ذلك امرين: اولهما اضعاف معنويات الامام وخلق حالة من الانهيار النفسي فيه. والثاني: محاولة ادانة الامام في مجلس يضمّ زعيمي الجبهتين (جبهة الخلافة وجبهة الامامة)، ثم نقل هذه الادانة عن طريق ابواق البلاط كالخطباء ووعاظ السلاطين والجواسيس وبذلك يسجل لنفسه انتصارا على خصمه.

يدخل الامام مجلس الخليفة، وخلاف ما اعتاده الداخلون من السلام على الخليفة بإمرة المؤمنين، يتوجه إلى كل الحاضرين، ويشير اليهم جميعا ويقول: السلام عليكم.. ودون أن ينتظر الاذن بالجلوس يأخذ مكانه في المجلس. وهذا الموقف من الامام أضرم نار الحسد والحقد في قلب هشام. وبدأ هشام على الفور يقول: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شقّ عصا المسلمين، ودعا الى نفسه، وزعم أنه الامام سفها وقلة علم، وجعل

يوبّخه[١].

وبعد هشام أخذ أفراد بطانته يرددون مثل هذه التهم والتوبيخ.. والامام ساكت في كل هذه المدّة ومطرق بوقار ينتظر فرصة الاجابة.. وحين افرغت البطانة ما في كنانتها وخيّم السكوت على المجلس، نهض الامام وتوجه الى الحاضرين، وبعد أن حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه، خاطب المجلس بعبارات قصيرة قارعة بيّن تفاهة هذه البطانة وانقيادها البهيمي كما بيّن فيها مكانته ومكانة أهل البيت وفق معايير اسلامية، واستخف بكل ما يحيط بالخليفة وحاشيته من هيل وهيلمان ومكانة وسلطان، فقال:

«ايها الناس! اين تذهبون؟ واين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم، وبنا يختم آخركم، فان يكن لكم ملك معجّل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك، لأنّا أهل العاقبة، يقول الله عزّوجل: ﴿والعاقبة للمتقين﴾[٢]».

عبارات تظلّم وتهكّم وتبشير وتهديد واثبات وردّ في جمل موجزة ذات وقع مثير تفرض على سامعها الايمان بحقّانية قائلها.. ولم يكن أمام هشام سبيل سوى الامر بسجن الامام.

الامام في سجنه واصل عمله التغييري فأثّر على من معه في السجن. بلغ الامر هشاما فكَبُر عليه أن يرىٰ حدوث مثل ذلك في عاصمته المحصّنة من التأثير العلوي. فأمر أن يؤخذ السجين ومن معه علىٰ مركب سريع (البريد) ويُرسل الى المدينة حيث مسكنه ومحل إقامته، وأمر أن لا يتعامل أحد في

---

١ - بحار الانوار ٤٦: ٢٦٣ رواية ٦٣ باب ٥.

٢ - بحار الانوار ٤٦: ٢٦٤ الباب ١٦ الرواية ٦٣.

الطريق مع هذه القافلة المغضوب عليها ولا يزودها بماء أو طعام[1].

مرت ثلاثة أيام من السير المتواصل انتهى خلالها ما في القافلة من ماء وطعام. ووصلوا «مدين». وأغلق اهل المدينة حسب ما لديهم من أوامر ابواب مدينتهم، وأبوا أن يبيعوا متاعا. اشتد على أتباع الامام الجوع والعطش. صعد الامام على مرتفع يطل على المدينة ونادى بأعلى صوته:

يا أهل المدينة الظالم أهلها، أنا بقية الله. يقول الله: ﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾.

يقول الراوي: وكان بين اهل المدينة شيخ كبير فأتاهم فقال: يا قوم هذه والله دعوة شعيب عليه السلام. والله لئن لم تخرجوا الى هذا الرجل بالاسواق لتؤخذنّ من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدّقوني واطيعوني.. فاني لكم ناصح.

---

١ - ويروى أنه أشاع بين اهالي المدن الواقعة على الطريق أن محمد بن علي وجعفر بن محمد تنصّرا وخرجا من الاسلام (بحار الانوار ٤٦: ٣٠٦). وشبيه ذلك ما وقع لمولانا وهو من زعماء الحركة الاسلامية المناهضة للاستعمار البريطاني في منتصف القرن التاسع عشر. فقد أشاعوا عنه أنه وهابي. وكانت هذه التهمة كافية لاسقاط هذا الرجل المناضل من أعين الناس البسطاء السذّج. الوهابية كانت مقرونة في أذهان الناس بتلك العصابة التي روّعت حجاج بيت الله واستباحت دماء المسلمين في الحجاز.. فكانت كريهة لديهم ومقيتة. وتهمة الوهابية أُلصقت بهذا الرجل فتقبلتها الاذهان الساذجة دون أن تسأل عن مبرر هذه التهمة وعن امكان أن يكون رجل مناضل مثل مولانا معتنقا لفكرة جاء بها الانجليز الى العالم الاسلامي (راجع كتاب: المسلمون في حركة الهند (بالفارسية) ط آسيا) حين ترى موقف الناس من الامام أبأقر بعد اتهامه بالنصرانية في ذلك الزمان وموقفهم من مولانا بعد اتهامه بالوهابية في القرن الماضي لتعجّب من وحدة المواقف، ولردّد ما يقوله الشاعر العربي: الناس كالناس والايام واحدة..

استجاب اهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا وأخرجوا الى جعفر واصحابه الاسواق[١].

وآخر فصل في هذه الرواية يبين أيضاً بطش الخليفة العباسي وتجبّره. فبعد أن فتح اهل المدينة أبوابها للامام وصحبه، كُتب بجميع ذلك الى هشام. فكتب هشام إلى عامله على مدين يأمره بأن يأخذ الشيخ فيقتله رحمة الله عليه وصلواته[٢].

ومع كل ذلك، يتجنب الامام أيّ مواجهة حادّة ومجابهة مباشرة مع الجهاز الحاكم. فلا يعمد الى سيف، ولا يسمح للايدي المتسرعة الى السلاح أن تشهره، ويوجهها توجيها حكيما، وسيف اللسان أيضا لا يشهره إذا لم يتطلب عمله التغييري الاساسي الجذري ذلك، ولا يسمح لاخيه زيد، الذي بلغ به الغضب مبلغه وثارت عواطفه أيما ثورة أن يخرج (يثور). بل يركز نشاطه العام على التوجيه الثقافي والفكري.. وهو بناء أساس ايديولوجي في اطار مراعاة التقية السياسية. ولكن هذا الاسلوب لم يكن يمنع الامام ـ كما اشرنا ـ من توضيح «حركة الامامة» لاتباعه الخلّص وإذكاء أمل الشيعة الكبير وهو إقامة النظام السياسي بمعناه الصحيح العلوي في قلوب هؤلاء، بل يعمد أحيانا الى إثارة عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطريق.

التلويح بمستقبل مشرق من السبل التي مارسها الامام الباقر مع أتباعه.

---

١ ـ بحار الانوار ٤٦: ٣٤٦.

٢ ـ بحار الانوار ٤٦: ٣١٣.

وهو يشير ايضا الى تقويم الامام ﷺ للمرحلة التي يعيشها من الحركة.

يقول الحكم بن عيينة: بينا أنا مع أبي جعفر ﷺ والبيت غاص بأهله إذ أقبل شيخ يتوكأ على عنزة (عكازة) له حتى وقف على باب البيت فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثم سكت فقال أبو جعفر: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم اقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال: السلام عليكم. ثم سكت حتى أجابه القوم جميعا، وردّوا عليه السلام. ثم أقبل بوجهه على الامام وقال: يا ابن رسول الله أدنني منك جعلني الله فداك. فوالله إني لأحبكم وأحب من يحبكم، ووالله ما أحبكم وأحب من يحبكم لطمع في دنيا. وإني لأبغض عدوكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لو تركان بيني وبينه. والله إني لأحلُّ حلالكم واحرّم حرامكم، وانتظر أمركم، فهل ترجو لي جعلني الله فداك؟ فقال الامام: اليَّ اليَّ حتى أقعده إلى جنبه ثم قال:

«ايها الشيخ إن ابي عليّ بن الحسين ﷺ أتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه فقال له أبي ﷺ: إن تمت ترد على رسول الله ﷺ وعلى عليّ والحسن والحسين وعلى عليّ بن الحسين، ويثلج قلبك، ويبرد فؤادك، وتقرّ عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين... وإن تعش ترى ما يقرّ الله به عينك، وتكون معنا في السنام الاعلى». قال الشيخ وهو مندهش من عظمة البشرى: كيف يا ابا جعفر؟ فأعاد عليه الكلام، فقال الشيخ: الله اكبر يا أبا جعفر إن انا مت أرد على رسول الله ﷺ وعلى علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين وتقرُّ عيني

ويثلج قلبي ويبرد فؤادي وأستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي ههنا، وإن أعش أرى ما يقرّ الله به عيني، فأكون معكم في السنام الاعلى؟ ثم اقبل الشيخ ينتحب حتى لصق بالارض. واقبل اهل البيت ينتحبون لما يرون من حال الشيخ. ثم رفع الشيخ رأسه وطلب من الامام ان يناوله يده فقبلها ووضعها على عينه وخدّه، ثم ضمّها الى صدره، وقام فودّع وخرج والامام ينظر اليه ويقول: «من أحب أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا»[1].

مثل هذه التصريحات، تذكي روح الامل في قلوبٍ تعيش جوّ الاضطهاد والكبت، فتكسبها زخما ودفعا نحو الهدف المنشود المتمثل في إقامة النظام الاسلامي العادل.

تسعة عشر عاما من إمامة الباقر ﷺ تواصلت على هذا الخط المستقيم المتماسك الواضح... تسعة عشر عاما من التعليم الايديولوجي، والبناء، والتكتيك النضالي، والتنظيم، وصيانة وجهة الحركة، والتقية، واذكاء روح الامل... تسعة عشر عاما من مسير شائك وعر يتطلب من الجدّ والجهد. وحين أشرفت هذه الاعوام على الانتهاء واوشكت شمس عمره المباركة على المغيب، تنفس اعداؤه الصعداء، لانهم بذهاب هذا القائد الموجّه سوف يتخلصون من مصدر إثارة طالما قضّ مضاجعهم وسرق النوم من عيونهم. لكنّ الامام خيّب آمالهم وفوّت عليهم هذه الفرصة، حين جعل من وفاته مصدر عطاء، ومنطلق إثارة، ووسيلة توعية مستمرة! لقد وجّه ولده

---

١ - بحار الانوار ٤٦: ٣٦٢ - ٣٦٣.

الصادق في اللحظات الاخيرة من حياته توجيها يمثل نموذجا رائعا من نماذج التقية التي مارسها الامام الباقر والاسلوب الذي استعمله في مرحلته الزمنية الخاصة. في الرواية عن ابي عبدالله الصادق ﷺ قال: «قال لي أبي: يا جعفر اوقف لي من مالي كذا وكذا لنوادب تندبني عشر سنين بمنى أيام منى»[1].

وهذه الرواية لم يقف عندها من بحث في حياة الامام الباقر وغفلوا عما فيها من دلالات كبيرة. لقد خلف الامام (٨٠٠) درهم، وأوصى أن يخصص جزء منها لمن يندبه في منى.. وندب الامام في منى له معنى كبير. إنه عملية إحياء ذلك المصدر الذي كان يشعّ دائما بالتوعية والاثارة وخلق روح الحماس والمقاومة.

واختيار منى بالذات يعني مواصلة العمل في وسط تمركز الوافدين من كل أرجاء العالم الاسلامي، خلال فترة الاستقرار الوحيدة في موسم الحج. فكل مناسك الحج يمرّ بها الحاج وهو في حركة دائبة مستمرة، إلّا في منى حيث يبيت الليلتين او الثلاث، فيتوفر لديه الوقت الكافي لكي يسمع ويطّلع. وندب الامام في هذا المكان سيثير التساؤل عن شخصية هذا المتوفّى من هو؟ فيحصلون على الجواب من أهل المدينة الذين عاصروه. انه من أبناء رسول الله واستاذ الفقهاء والمحدثين. ولماذا يندب في هذا المكان؟ الم يكن موته طبيعياً؟ من الذي قتله أو سمّه؟ هل كان يشكل خطر على الجهاز الاموي؟ و.. و.. عشرات الاسئلة كانت تثار حين يندب الامام في هذا

---

١ - بحارالانوار ٤٦: ٢٢٠.

المكان. ثم يحصل السائلون على الاجابة... وتنشر الاخبار في اطراف البلاد واكنافها بعد عودة الحجيج الى أوطانهم وكان هناك في مواسم الحج من يأتي من الكوفة والمدينة ليجيب عن هذه التساؤلات مغتنماً فرصة تجمع المسلمين، وليبث روح التشيّع من خلال أعظم قناة إعلامية آنذاك.

هكذا عاش الامام، وهكذا خطط لما بعد وفاته فسلام عليه يوم ولد ويوم جاهد ويوم استشهد في سبيل الله ويوم يبعث حياً.

توفي الامام الباقر عليه السلام وهو في السابعة والخمسين من عمره، على عهد هشام بن عبدالملك، وهو من اكثر ملوك بني أُمية اقتداراً، ورغم ما كانت تحيط بالحكومة الاموية آنذاك من مشاكل ومتاعب فان ذلك لم يصرفها عن التآمر على القلب النابض للشيعة أي الامام الباقر، فأوعز هشام الى عملائه أن يدسّوا السمّ للامام، وحقق بذلك انتصاره في القضاء على أخطر أعدائه.

وتحمّل الامام الصادق عليه السلام مسؤولية مواصلة المسيرة في ظروف معقّدة وصعبة للغاية.

فالانتفاضات تنتشب في طول البلاد وعرضها، والولاة منهمكون بجمع الاموال والثروات الطائلة[1]. والطاعون والقحط يضرب مناطق واسعة منها

---

١ - خالد بن عبدالله القسري والي العراق كان عائده السنوي ثلاثة عشر مليوناً. وكتب اليه الخليفة أن لا يبيع غلته قبل بيع غلة الخليفة. فصعد خالد المنبر وذكر أن قوماً يتهمونه بالتلاعب بالاسعار، ولعن من يتلاعب بالاسعار (ويقصد بذلك الخليفة وكان عليه واجداً). وامرأة هشام كان لها ثوب خيوطه من الذهب ومرصع بالمجوهرات الثمينة، وقد ثقل وزنه حتى ما كانت تقدر على أن تمشي به. ولم يستطع أحد أن يضع له قيمة. وهشام =

خراسان ... الجهاز الحاكم يبطش دون رحمة ويخلق حالة من الذلّ والخنوع بين الناس. والمنشغلون بالعلوم الاسلامية من فقه وحديث وتفسير لم يكن خطرهم غالباً يقل عن خطر الساسة والحكام، وهم الذين يُفترض بهم أن يكونوا ملاذ الناس وملجأهم. كثير من هؤلاء كانوا يدبّجون الفتاوى ليرضوا السلطان والولاة[1]. وكثيرٌ منهم كانوا يشغلون أنفسَهم ويشغلون الناسَ بتوافهِ الأمور ويُثيرون النزاعات الكلامية الفارغة التي لا تمت بصلة الى الاسلام والى معاناة الجماهير.

مهمة الامام الصادق في هذه الظروف هي ما ذكرناه بشأن مهمة الامامة، وتتلخص في طرح الفكر الاسلامي الصحيح، أي تبيين الاسلام كما جاء في القرآن وسنة رسول الله مع مكافحة كل الانحرافات والتشويهات الجاهلة والمغرضة، وكذلك التخطيط لاقامة نظام العدالة الاسلامية وصيانة هذا النظام في حالة إقامته.

كلا المهمتين: المهمة الفكرية والمهمة السياسية تشكلان خطراً كبيراً على النظام الحاكم ليست المهمة السياسية وحدها تثير سخط السلطة فالمهمة

= نفسه كان له بساط من الحرير والذهب طوله ١٠٠ ذراع وعرضه ٥٠ ذراعا. (ابن ايرج ٥/٢٢٠، وبين الخفاء والخلفاء ص ٣٨ و٥٦).

١ – من ذلك فتوى الحسن البصري في عدم جواز الخروج على الحجاج بن يوسف ذلك الطاغية الذي سفك الدم الحرام واخذ المال الحرام وترك الصلاة قائلاً: أرى أن لا تقاتلوه فانها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (نظرية الامامة لدى الشيعة الاثني عشرية. د. احمد محمود صبحي، ص ٢٣).

الفكرية أيضا تلغي تلك الافكار والمفاهيم المنحرفة التي قدمها السلطان ووعاظه باسم الدين الى المجتمع [1]. من هنا فان العملية الفكرية لها الاولوية لانها تقضي على الزيف الديني الذي يستند اليه الجهاز الحاكم في مواصلة ظلمه. من جهة اخرى فان الاوضاع السائدة مستعدة للفكر الشيعي الثوري. الحرب والفقر والاستبداد عوامل تغذّي روح الثورة، اضف الى ذلك عامل الاجواء التي وفّرها نشاط الامام الباقر في المناطق القريبة والنائية.

ان الاستراتيجية العامة للامامة هي النهوض بثورة توحيدية علوية، ومتطلباتها هي اولاً: ايجاد مجموعة تحمل فكر الامامة وتهضمه وتتطلع بشوق الى تطبيقه، وثانياً: ايجاد مجموعة منظمة مجاهدة مضحّية. وهذه المتطلبات تستلزم بدورها نشر الدعوة في جميع أرجاء العالم واعداد الارضية النفسية لتقبل الفكر الاسلامي الثائر في جميع الاقطار، وتستلزم أيضا دعوة أخرى لإعداد افراد مضحين متفانين يشكلون التنظيم السرّي للدعوة.

وهذا هو سرّ صعوبة الدعوة على طريق الامامة الحقّة. فالدعوة الرسالية التي تستهدف القضاء على الطاغوت وعلى التفرعن والتجبّر والعدوان

---

١ - مع كل الانحرافات التي عصفت بالمجتمع كان الايمان بالدين يسيطر على الافكار والقلوب، والظلمة الطغاة استغلوا هذا الايمان، فقدموا للمجتمع مفاهيم منحرفة باسم الدين تضمن بقاءهم واستمرار ظلمهم وتحكمهم. من ذلك اضفاء صفة القدسية على «البيعة». فكلما تمادى الخليفة في غيّه وظلمه لا تجوز معصيته ولا الثورة عليه لان له في الاعناق بيعة! وكان لهذا المفهوم دوره الكبير في خلق حالة من الخضوع والخنوع أمام الجهاز الحاكم.

والظلم في المجتمع وتلتزم بالمعايير الاسلامية، لابدّ ان تستند الى ارادة الجماهير وقوّتها وايمانها ونضجها. خلافا لتلك الدعوات التي ترفع شعار محاربة الطغاة، وهي تمارس في الوقت نفسه أعمال الطغاة والظَلَمة في حركتها دون أن تتقيد بمبادىء أخلاقية واجتماعية، فمثل هذه الدعوات لا تواجه صعوبات الدعوات الرسالية الهادفة. وهذا هو سرّ عدم تحقق أهداف حركة الامامة على المدى العاجل. وهو ايضا سرّ الانتصار السريع للحركات الموازية لحركة الامامة (مثل حركة العباسيين).

الظروف المساعدة والارضية المناسبة التي وفّرها نشاط الامام السابق ـ الباقر ﷺ ـ أدّت الى أن يظهر الامام الصادق ـ في جوّ العذاب الطويل الذي عانى منه الشيعة ـ بمظهر الفجر الصادق الذي ينتظره اتباع أهل البيت في سالف أيامهم. والامام الباقر ذكر بالاشارة والتصريح ما يركز هذا المفهوم.

عن جابر بن يزيد الجعفي: سئل الامام الباقر ﷺ عن القائم فضرب يده على أبي عبدالله ﷺ وقال: «هذا والله ولدي قائم آل بيت محمد ﷺ»[1].

والقائم هنا طبعا غير قائم آل محمد في آخر الزمان وهو المهدي الذي تواترت الروايات لدى كل المسلمين أنه يظهر في آخر الزمان وأنه الخليفة الثاني عشر من خلفاء رسول الله. القائم هنا بمعناه اللغوي ينطبق على كل من ينهض بوجه الظلم والاستبداد، وهو اصطلاح معروف في مدرسة أهل البيت، ولا يعني ذلك أن يكون القائم بالسيف بالضرورة. بل إنه يقوم بهجوم ثقيل خطير سواء في اسلوب النشاط الفكري او التنظيمي او بأية صورة

---

١ ـ بحار الانوار ٤٧: ١٣، باب ٣ الرواية ٦، ط بيروت.

أُخرى تستهدف مقارعة الظالمين ومهاجمتهم. فالامام الباقر ﷺ يركز هنا على مفهوم نهوض الامام الصادق ﷺ بمسؤولية كبيرة تجاه السلطة القائمة. ولا يركز على النتيجة.. بل في رواية اخرى يتحدث بلغة تكاد تكون يائسة من امكان انتصار حركة الامامة على الوضع السياسي القائم.

ومن الروايات التي يركز فيها الامام الباقر على الدور الذي سينهض به الامام الصادق ما رواه ابو الصباح الكناني قال: نظر ابو جعفر الى ابنه ابي عبدالله فقال: ترىٰ هذا؟ هذا من الذين قال الله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾[1].

ولعل تصريحات الامام هذه هي التي أشاعت فكرة قيام الصادق وخلافته بين الشيعة، وجعلت اصحاب الباقر والصادق يترقبون ساعة الصفر بين آونة واُخرى.

في رجال الشيخ الكشي رواية يمكن أن نفهم منها هذه الحالة السائدة بين اتباع أهل البيت آنذاك:

روىٰ ابن مسكان: عن زرارة انهُ سأل ابا عبدالله ﷺ عن رجل من اصحابنا مختنٍ من غرامة. فقال: اصلحك الله ان رجلاً من اصحابنا كان مختفياً من غرامة فان كان هذا الامر قريباً صبر حتىٰ يخرج مع القائم، وان كان فيه تأخير صالح غرامةً؟ فقال لهُ ابو عبدالله: يكون، فقال زرارة: يكون الى سنة؟ فقال ابو عبدالله ﷺ: يكون إن شاء الله، فقال زرارة: يكون الى سنتين؟ فقال ابو عبدالله ﷺ: يكون إن شاء الله، فخرج زرارة فوطّن نفسه

---

١ - بحار الانوار ٤٧: ١٣، باب ٣ الرواية ٤ عن الارشاد: ٢٨٩.

على ان يكون الى سنتين فلم يكن، فقال ما كنت ارى جعفراً الا اعلم مما هو[1].

وعبارة «هذا الامر» في عرف اتباع اهل البيت كناية عن المستقبل الموعود لهم، أي استلام زمام الحكم أو القيام بما يقربهم من ذلك كالثورة المسلحة مثلا. والقائم هو الذي يقود تلك العملية.

وفي رواية اخرى يذكر هشام بن سالم، وهو ايضا من وجوه الشيعة المعروفة أن زرارة قال له: لا ترىٰ على اعوادها غير جعفر، قال: فلما توفي ابو عبدالله عليه السلام اتيته فقلت له: تذكر الحديث الذي حدثتني به؟ وذكرته له، وكنت اخاف ان يجحدنيه، فقال: اني والله ما كنت قلت ذلك الا برأيي[2].

من مجموع ما تقدم نفهم أن الامام الصادق عليه السلام كان في نظر أبيه وفي نظر الشيعة مظهر آمال الامامة والتشيّع. وكأن سلسلة الامامة قد ادخرته ليجسّد مساعي الامام السجاد والامام الباقر عليهما السلام. كأنه هو الذي يجب أن يعيد بناء الحكومة العلوية والنظام التوحيدي. يجب أن ينهض نهضة اسلامية أخرى. الامامان السابقان طويا المراحل الصعبة الشاقة لهذا الطريق اللاحب وعليه أن يقطع المرحلة الاخيرة. والظروف ـ كما ذكرنا ـ قد تهيأت، والامام استثمر هذه الظروف لينهض برسالته الجسيمة.

منذ بداية استلام المسؤولية حتى الوفاة قضى ٣٣ عاما في جهاد متواصل. وخلال هذه الاعوام كانت الظروف في مد وجزر، مرّة تتجه لصالح

---

١ ـ رجال الكشي: ١٥٨ ط: مصطفوي.

٢ ـ رجال الكشي: ١٥٦ ـ ١٥٧ ط: مصطفوي.

مدرسة اهل البيت ومرة اخرى تعاكسها. مرة تبعث على التفاؤل وعلى أن النصر قريب، ومرة أخرى تشتد الضغوط وتختنق الانفاس فيخيّل الى أصحاب الامام أن كل الآمال قد تبددت. والامام الصادق ﷺ في كل هذه الاحوال ماسك بدقّة القيادة بعزم وتصميم يجتاز بالسفينة عبر هذه الامواج المتلاطمة الممزوجة بالامل واليأس. لا يفكر الا بما يجب قطعه في المستقبل من أشواط، باعثا الجد والنشاط والايمان في اتباعه للوصول الى ساحل النجاة.

ويلزمنا هنا أن نشير الى ظاهرة مؤسفة تواجه كل الباحثين في حياة الامام الصادق ﷺ، وهي الغموض الذي يكتنف السنين الاولى لبدايات إمامة الصادق ﷺ التي اقترنت بأواخر أيام بني أُمية. كانت حياة صاخبة متلاطمة مليئة بالحوادث الجسام، يمكن أن نفهم بعض ملامحها من خلال مئات الروايات. غير أن المؤرخين والمحدثين لم يعرضوا لنا هذه الفترة بشكل مرتب منسجم مترابط، ولابد للباحث أن يعتمد على القرائن، وأن يلاحظ التيارات العامة في ذلك الزمان، ويقرن كل رواية بما حصل عليه من معلومات مسبقة ليفهم محتوى الرواية وتفاصيلها.

ولعلّ أحد أسباب هذا الابهام يكمن في سريّة حركة الامام واتباعه. فالتنظيم السري القائم على أُسس صحيحة يجب أن تبقى المعلومات عنه سرية مخفية، وأن لا يطلع عليها من هو خارج التنظيم. ولا تنشر هذه المعلومات الا بعد أن تحقق الحركة انتصارها. ومن هنا تتوفر لدينا معلومات وافية عن تفاصيل الاتصالات السرية في حركة العباسيين، لأن حركتهم

انتصرت ولا شك أن حركة أهل البيت لو قُدّر لها أن تنتصر وتستلم زمام الامور لاطلعنا اليوم على أسرار تنظيمها الواسع.

وثمة سبب آخر يمكن أن يكون عاملا في هذا الغموض هو أن المؤرخين كانوا يدونون عادة ما يرضي السلطان، ولذلك نرى في كتبهم تفاصيل حياة الخلفاء وهوهم ولعبهم وسهراتهم ومجالس طربهم، بينما لا نرىٰ شيئاً يؤبه له بشأن الثائرين والمظلومين والمسحوقين، لان مثل هذه المعلومات تحتاج من الباحث أن يتحرى ويبحث ويخاطر، بينما حياة الخلفاء مادة جاهزة وغنيمة باردة تكسب الرضا وتستدر العطاء.

والمؤرخون الخاضعون للخلافة العباسية استمروا يكتبون على هذا المنوال مدة خمسمائة سنة بعد حياة الامام الصادق، ومن هنا لا يمكن أن نتوقع العثور على شيء معتد به من المعلومات عن حياة الامام الصادق عليه السلام أو أي إمام من أئمة الشيعة في مثل هذه المصادر.

الطريق الوحيد الذي يستطيع أن يهدينا الى الخط العام لحياة الامام الصادق عليه السلام هو اكتشاف المعالم الهامة لحياة الامام من خلال الاصول العامة لفكر الامام وأخلاقه. ثم نبحث في القرائن والادلة المتناثرة التاريخية والقرائن الاخرى غير التاريخية لنتوصل الى التفاصيل.

الفصل الثالث

المعالم البارزة في حياة الإمام الصادق عليه السلام

والمعالم الهامة البارزة في حياة الامام الصادق عليه السلام وجدتها من منظار بحثنا تتلخص بما يلي:

١ ـ تبيين مسألة الامامة والدعوة إليها.

٢ ـ بيان الاحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة اهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

٣ ـ اقامة تنظيم سري ـ ايديولوجي ـ سياسي.

وطريقة بحثنا أن ندرس كل واحد من هذه المعالم، ونضع في النهاية فهرساً لنشاطات الامام، وأن يكون ذلك قدر المستطاع باسلوب المؤرخين لا باسلوب المحدثين.

١ ـ تبيين مسألة الامامة والدعوة اليها

هذا الموضوع يشكل أبرز خصائص دعوة أئمة أهل البيت، منذ السنوات الاولى التي اعقبت رحيل النبي الاكرم صلى الله عليه وآله، كانت مسألة إثبات امامة أهل البيت عليهم السلام تشكل طليعة الدعوة في كل أعصار الامامة. هذه المسألة

نشاهدها أيضاً في ثورة الحسين بن علي عليه السلام، ونشاهدها بعد ذلك أيضاً في ثورات أبناء أئمة أهل البيت مثل زيد بن علي. ودعوة الامام الصادق عليه السلام لم تخرج عن هذا النطاق أيضاً.

قبل أن نستعرض وثائق هذا الموضوع، يجب علينا أن نعرف أولا مفهوم «الامامة» في الفكر الاسلامي. وما معنى الدعوة الى الامامة.

كلمة «الامامة» تعني في الاصل القيادة بمعناها المطلق وفي الفكر الاسلامي تطلق غالبا على مصداقها الخاص، وهو القيادة في الشؤون الاجتماعية، الفكرية منها والسياسية.

وأينما وردت في القرآن مشتقات لكلمة الامامة (امام، أئمة)، فيراد بها هذا المعنى الخاص لقيادة الامة. ففي بعض المواضع يقصد بها القيادة الفكرية وفي مواضع أُخرى يراد بها القيادة السياسية، او الاثنين معاً.

بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وظهور الانشقاق الفكري والسياسي بين المسلمين اتخذت كلمة الامامة والامام مكانة خاصة لأن مسألة القيادة السياسية شكلت المحور الاساس للاختلاف. والكلمة كان لها في البداية مدلول سياسي أكثر من أي مدلول آخر، ثم انضمت اليها بالتدريج معانٍ أخرى، حتى أصبحت مسألة «الامامة» تشكل في القرن الثاني أهم مسائل المدارس الكلامية ذات الاتجاهات الفكرية المختلفة، وكانت هذه المدارس تطرح آراءها بشأن شروط الامام وخصائصه، أي شروط الحاكم في المجتمع الاسلامي، وهو معنى سياسي للامامة.

إن الامامة في مدرسة اهل البيت ـ التي يرى أتباعها أنهم يمثلون أنقى تيار

فكري اسلامي ـ لها نفس المعنى، ونظرية هذه المدرسة بشأن الامامة تتلخص فيما يلي:

الامام والزعيم السياسي في المجتمع الاسلامي يجب أن يكون منصوبا من الله، باعلان من النبي. ويجب أن يكون قائدا فكريا ومفسرا للقرآن وعالما بكل دقائق الدين ورموزه، ويجب أن يكون معصوما مبرّأ من كل عيب خلقي وأخلاقي وسببي. ويجب أن يكون من سلالة طاهرة نقية الى غير ذلك.

وبذلك فان الامامة كانت في العرف الاسلامي خلال القرنين الاول والثاني تعني القيادة السياسية، وفي العرف الخاص بأتباع أهل البيت تعني، اضافة الى القيادة السياسية، القيادة الفكرية والاخلاقية أيضا.

فالشيعة تعترف بامامة الفرد حين يكون ذلك الفرد متمتعا بخصائص هي ـ اضافة الى قدرته على ادارة الامور الاجتماعية ـ مقدرته على التوجيه والارشاد والتعليم في الحقل الفكري والديني، والتزكية الخلقية. ولو لم تتوفر فيه هذه المقدرة لا يمكن أن يرقى الى مستوى «الامامة الحقة». وليس بكاف ـ في نظرهم ـ حسن الادارة السياسية والاقتدار العسكري والفتوحات وامثالها من الخصائص التي كانت معيارا كافيا لدى غيرهم.

فمفهوم الامامة لدى اتباع أهل البيت ـ اذن ـ يتجه الى اعطاء إمامة المجتمع صفة قيادة ذلك المجتمع في مسيرته الجماعية والفردية. فالامام رائد مسيرة التعليم والتربية وقائد المسيرة الحياتية. ومن هنا كان «النبي» ﷺ إماما أيضا، لانه القائد الفكري والسياسي للمجتمع الذي اقام دعائمه. وبعد النبي تحتاج الامة الى امام يخلفه ويتحمل عبء مسؤولياته، (بما في ذلك

المسؤولية السياسية). ويعتقد الشيعة أن النبي نصّ على خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم تنتقل الامامة بعده الى الائمة المعصومين من ولده[١].

ولابد من الاشارة الى أن تداخل المهام الثلاث للامامة: القيادة السياسية، والتعليم الديني، والتهذيب الاخلاقي والروحي في الامامة الاسلامية ناشيء من عدم وجود تفكيك بين هذه الجوانب الثلاثة في المشروع الاسلامي للحياة البشرية. فقيادة الامة يجب أن تشمل قيادتها في هذه الحقول الثلاثة أيضا. وبسبب هذه السعة وهذه الشمولية في مفهوم الامامة لدى الشيعة كان لابد أن يعين الامام من قبل الله سبحانه.

نستنتج مما سبق أن الامامة ليست، كما يراها اصحاب النظرة السطحية، مفهوماً يقابل «الخلافة» و«الحكومة» أو منصبا منحصرا بالامور المعنوية والروحية والفكرية، بل إنها في الفكر الشيعي «قيادة الامة» في شؤون دنياها وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية (رئاسة الدولة) وايضا في شؤون التعليم والارشاد والتوجيه المعنوي والروحي وحل المشاكل الفكرية وتبيين الايديولوجية الاسلامية «القيادة الفكرية».

وهذه المسألة الواضحة أضحت مع الاسف غريبة على أذهان اكثر المعتقدين بالامامة. ولذلك نرى من الضروري عرض بعض النماذج من مئات الوثائق القرآنية والحديثية في هذا المجال:

في كتاب «الحجة» من «الكافي» حديث عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام يذكر فيه بالتفصيل ما يرتبط بمعرفة الامام ووصفه ويتضمن

---

١ - راجع تفاصيل ادلة هذه المسألة في مظانها.

معاني عميقة ورائعة.

من ذلك ما ورد بشأن الامامة بأنها: هي منزلة الانبياء وإرث الاوصياء، أن الامامة خلافة الله، وخلافة الرسول، ومقام أميرالمؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام ان الامامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعزّ المؤمنين، ان الامامة أس الاسلام النامي، وفرعه السامي، بالامام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات، وامضاء الحدود والاحكام، ومنع الثغور والاطراف[1].

وحول الامام انه:

«النجم الهادي، والماء العذب، والمنجي من الردى، والسحاب الماطر، ومفزع العباد في الداهية، وأمين الله في خلقه، وحجته على عباده، وخليفته في بلاده، والداعي الى الله، والذاب عن حرم الله، ونظام الدين، وعزّ المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين»[2].

كل ما كان يمارسه النبي صلى الله عليه وآله من مسؤوليات ومهام يتحملها علي عليه السلام والأئمة من ولده[3].

وفي رواية أخرى عن الامام الصادق عليه السلام نرى تأكيدا على إطاعة «الاوصياء» وتوضح الرواية أن الاوصياء هم نفسهم الذين عبّر عنهم

---

١ - اصول الكافي ١: ٢٠٠.

٢ - نفس المصدر «عبارات متفرقة مختارة من النص».

٣ - جرىٰ له من الفضل مثل ما جرى لمحمد صلى الله عليه وآله (... ولقد حملت على مثل حمولته...) وكذلك يجري لأئمة الهدىٰ واحداً بعد واحد... الكافي ١: ١٩٦.

القرآن بأولي الامر[١].

إنّ مئات الروايات المتفرقة في الابواب المختلفة تصرح أن مفهوم الامام والامامة في الفكر الشيعي ما هو الا القيادة وادارة شؤون الامة المسلمة، وأن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الاصحاب الحقيقيون للحكومة. وتدل جميعا بما لا يقبل الشك على أن أئمة أهل البيت عليهم السلام في ادعائهم الامامة كانوا لا يقتصرون بالمطالبة على المستوى الفكري والمعنوي بل كانوا يطالبون بالحكومة ايضا. ودعوتهم على هذا النطاق الواسع الشامل انما هي دعوة لحركة سياسية عسكرية لاستلام السلطة.

هذه الحقيقة ظلت خافية على الباحثين في العصور التالية[٢]، بينما كانت في فهم اصحاب الائمة والمعاصرين لهم من أوضح الحقائق حتى إن «الكميت» في احدى قصائده الهاشميات يصف أئمة أهل البيت بأنهم ساسة يقودون الناس بطريقة تختلف تماما عن الطريقة التي يمارسها الحكام الظلمة الذين يعاملون الناس كالبهائم[٣].

نعود الى الموضوع الاصلي وهو أن بيت القصيد في دعوة الامام الصادق عليه السلام وسائر أئمة اهل البيت كان يدور حول «الامامة». ولإثبات هذه

---

١ - الكافي ١: ١٨٧، ح ٧ و ١٢: ١٨٩، ح ١٦.

٢ - في العقود الاخيرة صدرت عن المستشرقين والعلماء المسلمين الشيعة والسنة كتابات تصور الدور السلبي للأئمة تجاه مسألة الحكم، او الدور المحايد، او المداهن بل الدور البعيد كل البعد عن السياسة. راجع مثلا: نظرية الامامة لدى الشيعة، والتشيع والتصوف، والامام الصادق والمذاهب الاربعة، والعباسيون الاوائل.

٣ - الغدير: ٢: ١٨٧-٢١٢.

الحقيقة التاريخية. أمامنا روايات متضافرة تنقل بوضوح وصراحة عن الامام الصادق عليه السلام ادعاءه الامامة. وكما سنوضح فيما بعد، أن الامام حين يعلن دعوته هذه كان يرى نفسه في مرحلة من الجهاد تستدعي أن يرفض بشكل مباشر صريح حكام زمانه وأن يعلن نفسه بأنه صاحب الحق الواقعي وصاحب الولاية والامامة. ومثل هذا التصدي يعني عادة اجتياز سائر المراحل الجهادية السابقة بنجاح. ولابد أن يكون الوعي السياسي والاجتماعي قد انتشر في قاعدة واسعة، وأن الاستعداد محسوس بالقوة في كل مكان، وأن الارضية الايديولوجية قد توفرت في عدد ملحوظ من الافراد، وان جمعاً غفيراً آمن بضرورة إقامة حكومة الحق والعدل. وأن يكون القائد ـ أخيراً ـ قد اتخذ قراره الحاسم بشأن هذه المواجهة الساخنة. وبدون هذه المقدمات فان اعلان إمامة شخص معين وقيادته الحقّة للمجتمع أمر فيه تعجّل ولا جدوى منه.

المسألة الاخرى التي لابد من التركيز عليها في هذا المجال هي أن الامام ما كان يكتفي في بعض الموارد باثبات إمامته وحسب، بل يذكر الى جانب اسمه أسماء أئمة الحق من أسلافه ايضا، أي إنه يطرح في الحقيقة سلسلة ائمة أهل البيت بشكل متصل غير قابل للتجزئة والانفصال.

هذا الموقف يشير الى ارتباط جهاد أئمة أهل البيت وتواصله من الأزمنة السابقة الى عصر الامام الصادق عليه السلام. ان الامام الصادق عليه السلام يقرر امامته باعتبارها النتيجة الحتمية المترتبة على إمامة اسلافه، وبذلك يبين جذور هذه الدعوة وعمقها في تاريخ الرسالة الاسلامية وارتباطها بصاحب الدعوة

الرسول الاكرم عليه أفضل الصلاة والسلام. ولنعرض بعض نماذج دعوة الامام:

أروع رواية في هذا الباب عن «عمرو بن أبي المقدام». وفيها تصوير لواقعة عجيبة.

في يوم التاسع من ذي الحجة اذ اجتمع الحجاج في عرفة لأداء مناسك الوقوف، وقد توافدوا على هذا الصعيد من كل فج عميق.. من أقصى خراسان حتى سواحل الاطلنطي. الموقف حساس وخطير، والدعوة فيه تستطيع أن تجد لها صدى في أقاصي العالم الاسلامي، الامام انضم الى هذه الجموع الغفيرة المحتشدة، ليوصل اليها كلمته، يقول الراوي: رأيت الامام قد وقف بين الجموع ورفع صوته عالياً ليبلُغ أسماع الحاضرين ولينتقل الى آذان العالمين وهو ينادي:

«أيها الناس، إن رسول الله كان الامام ثم كان علي بن ابي طالب، ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم...» فينادي ثلاث مرات لمن بين يديه، وعن يمينه وعن يساره ومن خلفه، اثني عشر صوتاً[1].

ورواية أُخرى عن «ابي الصباح الكناني» أن الامام الصادق عليه السلام يصف نفسه وأئمة الشيعة بأن لهم «الانفال» و«صفو المال».

عن ابي الصباح قال: قال لي ابو عبدالله عليه السلام: «يا أبا الصباح نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الانفال ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم،

---

١ - بحار الانوار، ٤٧: ٥٨، ح ١٠٧ باب ٤.

ونحن المحسودون الذين قال الله في كتابه...»[1].

و«صفو المال»: هو من الاموال ذات القيمة الرفيعة في غنائم الحرب، وكان لا يقسم كما تقسم الغنائم بين المجاهدين، كي لا يستأثر به أحد دون آخر، ويكون كرامة كاذبة لأحد من الناس، بل إنه يبقى لدى الحاكم الاسلامي يتصرف به لما يحقق مصلحة عامة المسلمين. وكان الحكام الظلمة يستأثرون بهذا المال ويجعلونه مختصاً بهم غصباً. والامام يصرح بان «صفو المال» يجب أن يكون لهم وهكذا الانفال. وهذا يعني أنه يعلن نفسه بصراحة حاكماً شرعياً للمسلمين مسؤول عن استثمار هذه الاموال وفق ما يراه تحقيقاً لمصلحة الامة.

وفي حديث آخر يذكر الامام الصادق عليه السلام اسماء اسلافه من الأئمة واحدا واحدا ويشهد بإمامتهم وبوجوب طاعتهم، وحين يصل الى نفسه يسكت، والمخاطبون يعلمون جيدا أن ميراث العلم والحكم بعد الامام الباقر وصل الى الامام الصادق. وبذلك يعلن الامام حقه في قيادة الامة بأسلوب يجعله مرتبطا بجدّه علي بن ابي طالب عليه السلام[2]. وفي ابواب كتاب الحجة من «الكافي» وكذلك في الجزء ٤٧ من «بحار الانوار» أحاديث كثيرة من هذا القبيل تتحدث بصراحة أو بكناية عن ادعاء الامامة والدعوة اليها.

ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية أمامنا شواهد عن شبكة منظمة لدعوة الامام في جميع أرجاء العالم الاسلامي، والوثائق الكثيرة المتوفرة في هذا

---

١ - بحار الانوار، ٢٣: ١٩٩، ح ٣٢، كذلك راجع الرواية ٢٠ من نفس الباب

٢ - الكافي ١: ١٨٦.

المجال تجعل وجود هذه الشبكة أمرا حتميا لا مراء فيه. وهذه الشواهد تبلغ من الكثرة والوثوق بحيث يمكن أن نستدل بها على موضوعنا استدلالا قاطعا، ولو لم يتوفر حديث صريح واحد في هذا المجال.

نحن في هذا المجال أمام ظواهر تاريخية ثابتة:

١ ـ ثمة ارتباط منظم فكري ومالي بين الائمة عليهم السلام واتباعهم، وكانت الاموال تُحمل من أطراف العالم الى المدينة، وكذلك الاسئلة الدينية تتقاطر عليها.

٢ ـ اتساع الرقعة الموالية لآل البيت عليهم السلام خاصة في البقاع الحساسة من العالم الاسلامي.

٣ ـ تجمع عدد غفير من المحدثين والرواة الخراسانيين والسيستانيين والكوفيين والبصريين واليمانيين والمصريين حول الامام.

فهل إن هذه الظواهر المنسجمة المتناسبة مع بعضها قد حدثت بالصدفة؟

ولابد أن نضيف أن هذه الظواهر حدثت في ظل سيطرة سياسية كانت جادّة كل الجدّ في الغاء حتى اسم علي وآل علي عليهم السلام، بل وسب علي على المنابر، وتسليط انواع البطش والارهاب على أتباعهم. فكيف أمكن في مثل هذا الجوّ خلق قاعدة شعبية عريضة موالية لآل البيت تطوي آلاف الاميال للوصول الى الحجاز والمدينة لتتلمذ على أئمة أهل البيت عليهم السلام وتأخذ عنهم فكر الاسلام في الحياة الفردية والاجتماعية، وتتحدث معهم في موارد كثيرة وعن مسائل الثورة على الوضع الفاسد، أو بعبارة الروايات، تتحدث معهم عن مسائل القيام والخروج؟!!

فلو كان دعاة أهل البيت يقتصرون في حديثهم على علم الأئمة وزهدهم، فلماذا يدور الحديث في وسط هؤلاء الاتباع دائما عن الثورة المسلحة؟

ألا يدلّ كل هذا على وجود شبكة منظمة للدعوة الى إمامة أهل البيت بالمعنى الكامل للامامة أي الفكرية والسياسية؟

وهنا يطرح سؤال عن سبب سكوت التاريخ عن وجود مثل هذه الشبكة المنظمة في دعوة أهل البيت ﷺ، لماذا لم يذكر التاريخ صراحة شيئا عنها؟

والجواب ما أشرنا اليه سابقا، يكمن في التزام أصحاب الأئمة بالمبدأ الحركي الحكيم المسمى بالتقية، الذي يحول دون نفوذ أي عنصر أجنبي في تنظيم الامام. كما يكمن أيضا في عدم استطاعة الحركة الجهادية الشيعية من تحقيق أهدافها ومن استلام زمام الحكم.

لو أن بني العباس لم يستولوا على السلطة لبقيت دون شك كل نشاطاتهم السرية وذكريات دعوتهم مرّها وحلوها حبيسة في الصدور دون أن يعلم بها أحد ودون أن يسجلها التاريخ.

ومع ذلك، ليست قليلة هي الروايات التي تصرح الى حدّ ما بوجود دعوة واسعة لامامة أهل البيت. ونكتفي برواية تقول:

قدم رجل من أهل الكوفة الى خراسان، فدعا الناس الى ولاية جعفر بن محمد ﷺ، ففرقة أطاعت وأجابت، وفرقة جحدت وانكرت، وفرقة ورعت ووقفت... ثم تقول الرواية: فخرج من كل فرقة رجل فدخلوا على أبي عبدالله ﷺ فكان المتكلم منهم، الذي ورع ووقف. فقال: أصلحك الله قدم

علينا رجل من أهل الكوفة فدعا الناس الى طاعتك وولايتك، فأجاب قوم وأنكر قوم وورع قوم ووقفوا. قال الامام عليه السلام: فمن أي الثلاث أنت؟ قال: من الفرقة التي ورعت ووقفت. قال: فأين كان ورعك ليلة كذا وكذا (وذكّره بسقوطه في موقف شهواني). فارتاب الرجل[1].

الداعية كما ترى من أهل الكوفة، ومنطقة الدعوة خراسان، واسم الرجل مكتوم، ودعوته الى إمامة جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وولايته وطاعته.

ثمة وثائق أخرى تبين محتوى دعوة ائمة اهل البيت عليهم السلام وشيعتهم الى الامامة تعرضها المناقشات والمجادلات بينهم وبين خصومهم السياسيين (الامويين والعباسيين). هذه المنازعات كانت تدور احيانا بلغة الاستدلال الكلامي والديني، وأحيانا بلغة الادب الرفيع المتمثل بالشعر، وكان كل الحِجاج يقوم على أساس إثبات حق الامامة السياسية والحكم لأئمة اهل البيت عليهم السلام، ومقارعة المتربعين ظلما وغصبا على كرسي حكومة المسلمين. ان عصر الامام الصادق ـ لمعاصرته حركة بني العباس وانتصار هذه الحركة ـ كان مفعما بهذا اللون من الحِجاج.

كان شعراء بني العباس يحاولون اثبات حق الحكم لبني العباس استنادا الى نفس الادلة التي يقدمها عادة الطامعون الى السلطة والمتشبثون بكرسي الحكم. ويقف شعراء الشيعة مقارعين لحججهم مستدلين على زيف الحكم العباسي من منطق اسلامي يقوم على أساس رفض الظلم والاجرام والخيانة بحق الامة الاسلامية.

---

١ ـ بحار الانوار، ٤٧: ٧٢ عن بصائر الدرجات ٥: ٦٦.

وللحِجاج الشعري بين العباسيين والعلويين أهمية في هذا المجال، لما كان ينهض به الشعر آنئذ من دور كبير في التعبير عن العواطف والافكار، ولما كان يؤديه في القاعدة الشعبية من تأثير. يذكر صاحب كتاب «العباسيون الاوائل» دور الادب في القرنين الاول والثاني فيقول:

« ...كان الادب يؤثر في النفوس ويكسب عواطف الناس وميولهم الى هذه الفئة أو تلك، وكان الشعراء والخطباء بمثابة جريدة العصر يعبّر كل منهم عن رأي سياسي ويدافع عن حزب معين، مبرزا الدليل تلو الدليل على صحة دعواه، مفنداً آراء الخصوم بكلام مؤثر وأسلوب بليغ»[1].

شعراء البلاط العباسي كانوا يجتهدون في اثبات حق العباسيين في الخلافة باعتبار ارتباطهم بالنبي عن طريق العمومة، مستدلين على ذلك بأن الارث لا ينتقل الى أبناء البنت مع وجود الاعمام. فالخلافة بعد النبي من حقّ العباس عم النبي ومن بعده أبناؤه من بني العباس:

قال مروان بن أبي حفصة:

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الاعمام

وقال ابان بن عبدالحميد اللاحقي:

فأبناء عباس هم يرثونه كما العمُ لابن العم في الارث قد حجب

ومن جانب آخر انبرى الشعراء العلويون منطلقين من عاطفة الشعور بالظلم للرد على هذه الادلة، بنفس المنطق، وأحيانا بمنطق آخر للاستدلال على حق أئمة أهل البيت في الامامة، من ذلك استدلالهم بحديث غدير خم

---

١ – د. فاروق عمر، العباسيون الاوائل: ١٠٤.

كقول السيد الحميري:

من كنت مولاه فهذا له ... مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا

ويرد شاعر آخر على استدلال الشاعر العباسي بشأن وراثة الاعمام فيقول:

لِمَ لا يكون وان ذاك لكائن ... لبني البنات وراثة الاعمام
للبنت نصف كامل من ماله ... والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وانما ... صلى الطليق مخافة الصمصام[1]

ويرى دعبل أن كل ما حلّ باهل البيت عليهم السلام من مصائب إنما هو لانهم ورثوا النبي، فتكالب على هذا الارث الطامعون واضرّوا بمن له الحق في الامامة:

أضرّ بهم إرث النبي فأصبحوا ... تساهم فيهم خيفة ومنون
دعتهم ذئاب من أمية وانتحت ... عليهم دراكا أزمة وسنون
وعاثت بنو العباس في الدين عيثة ... تحكم فيها ظالم وخؤون
وسَمّوا رشيدا ليس فيهم لرشده ... وها ذاك مأمون وذاك أمين
فما قبلت بالرشد منهم رعاية ... ولا للولي بالامانة دين

وليس من العسير على الباحث في العصر العباسي الاول أن يجد مئات النماذج من المحاورات والمناظرات السياسية بلغة الشعر في هذا المجال. وكان شعراء الشيعة وخصومهم يقيمون الحجج على دعواهم. وليس من المهم أن نعرف في هذه المواجهة مقدار صحة هذه الحجج واستقامتها، ولكن من المهم

---

١ – الشاعر محمد بن يحيى بن ابي مرة الثقفي.

أن نعرف المحور الذي يدور حوله النزاع، والحق الذي يدعيه الجانبان.

هناك حق يدعيه كل جانب وهذا الحق هو وراثة رسول الله ﷺ في الحكم وفي قيادة المسلمين.

ليس النزاع بين الجانبين العلوي والعباسي في وراثة الخصال الاخلاقية والمعنوية والفكرية للنبي ﷺ. ليس الخلاف في أحقية هذا أو ذاك في وراثة هذه الخصال. لان هذه الخصال لا تشكل حقا يتنازع عليه فريقان. النزاع حول «حق» يدعيه الجانبان. وقد رأينا أن الشعراء في زمن الامام الصادق يدافعون عن حق الامام في قيادة الامة المسلمة وفي حكم المجتمع الاسلامي، ويخوضون حربا ضد من ليست لهم صلاحية حكومة المسلمين، ولذلك شواهد كثيرة في شعر القرن الثاني الهجري.

وقبل أن نختتم هذا القسم من المناسب أن نشير الى لغة حجاج أخرى هي لغة الرسائل. هذه الرسائل الاحتجاجية كانت تتضمن من جهة أهداف الفرقاء بشكل واضح دون لبس، وكانت تجد لها من جهة أخرى صدىً شعبياً بعد انتشار مضمونها، وتأثيراً قويا على الانصار والخصوم. نذكر من ذلك رسالة محمد بن عبدالله بن الحسن ذي النفس الزكية الى المنصور العباسي. هذا العلويّ الثائر يذكر بصراحة ووضوح أنه يطلب نزع الخلافة من خصومه لتكون في ابناء علي، يقول:

«وإن أبانا علياً كان الوصيّ وكان الامامَ فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء»[1]؟!

---

١ – تاريخ الطبري ٦: ١٩٥.

ويبدو أن هذا الاستدلال أورده العلوي ردا على استدلال العباسيين في وراثتهم الخلافة، لأن بني العباس لم تكن لهم حجة سوى هذا الارث المزعوم، فأراد أن يسدّ عليهم الطريق ويرد عليهم بنفس منطقهم. ويلاحظ في العبارة أن ذا النفس الزكية يركز على إمامة علي انطلاقا من فهمه لمعنى الامامة، ثم يركز على طبيعة دعوة البيت العلوي التي يمثلها هذا الثائر.

٢ ـ بيان الاحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله

هذا النشاط يمكن ملاحظته أيضا في حياة الامام الصادق عليه السلام بشكل متميّز عما نراه في حياة بقية أئمة آل البيت، حتى سمي فقه الشيعة باسم «الفقه الجعفري». حتى الذين يغضون الطرف عن النشاط السياسي للامام الصادق يجمعون على أن الامام كان يدير أوسع حوزة فقهية أو واحدة من أوسع الحوزات الفقهية في زمانه. والذي بقي مستورا عن أعين أغلب الباحثين في حياة الامام هو المفهوم السياسي والهجومي لهذا اللون من نشاطات الامام وهذا ما سنتعرض له الآن

لابد أن نذكر أولا أن منصب الخلافة في الاسلام له خصائص متميزة تجعل الحاكم متميّزاً عن الحكام في أنظمة الحكم الاخرى. فالخلافة ليست جهازا سياسيا فحسب، بل هي جهاز سياسي ـ ديني. واطلاق لقب الخليفة على الحاكم الاسلامي يؤيد هذه الحقيقة، فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله في كل ما كان يمارسه الرسول من مهام دينية ومهام قيادية سياسية في المجتمع.

والخليفة في الاسلام يتحمل المسؤوليات السياسية والمسؤوليات الدينية معا. هذه الحقيقة الثابتة دفعت الخلفاء الذين جاءوا بعد الخلفاء الاولين والذين كانوا ذوي حظ قليل في علوم الدين، أو لم يكن لهم منه حظ أصلا، دفعتهم الى سد هذا النقص عن طريق رجال دين مسخرين لهم. فاستخدموا فقهاء ومفسرين ومحدثين في بلاطهم ليكون جهازهم الحاكم جامعا للجانبين الديني والسياسي.

والفائدة الاخرى من وجود وعاظ السلاطين في الجهاز الحاكم هي إن الحاكم الظالم المستبد كان قادراً متى ما أراد أن يغير ويبدل أحكام الدين وفقا للمصالح. وكان هؤلاء المأجورون يقومون بهذه العملية ارضاء لأولياء نعمتهم تحت غطاء من الاستنباط والاجتهاد ينطلي على عامة الناس.

الكتاب والمؤرخون المتقدمون ذكروا لنا نماذج فظيعة من اختلاق الحديث ومن التفسير بالرأي كانت يد القوة السياسية فيها واضحة. وسنشير الى جانب منها في اقسام حديثنا التالية. هذا العمل الذي اتخذ غالبا في البداية (حتى أواخر القرن الهجري الاول) شكل وضع رواية أو حديث، راح تدريجيا يأخذ طابع الفتوى.

ولذلك نرى في أواخر عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس ظهور فقهاء كثيرين استفادوا من أساليب رجراجة في اصول الاستنباط ليصدروا الاحكام وفق أذواقهم التي كانت في الواقع أذواق الجهاز الحاكم.

هذه العملية نفسها أنجزت أيضا في حقل تفسير القرآن، فالتفسير بالرأي اتجه غالبا الى إعطاء مفاهيم عن الاسلام لا تقوم على أساس سوى ذوق

المفسر ورأيه المستمد من ذوق الجهاز الحاكم وإرادته.

من هنا انقسمت العلوم الاسلامية: الفقه والحديث والتفسير منذ أقدم العصور الاسلامية الى تيارين عامين:

التيار الاول: تيار مرتبط بجهاز الحكومة الظالمة الغاصبة، ويتميز بتقديم الحقيقة في موارد متعددة قربانا على مذبح «المصالح» التي هي في الواقع مصالح الجهاز الحاكم، ويتميز ايضا بتحريف أحكام الله لقاء دراهم معدودات.

والتيار الثاني: التيار الاصيل الامين الذي لا يرى مصلحة أرفع وأسمى من تبيين الاحكام الالهية الصحيحة، وكان يصطدم شاء أم أبى في كل خطوة من خطواته بالجهاز الحاكم ووعاظ السلاطين، ولذلك اتجه منذ البدء اتجاها شعبيا في اطار من الحيطة والحذر.

انطلاقا من هذا الفهم نعرف بوضوح أن اختلاف «الفقه الجعفري» مع الفقهاء الرسميين في زمن الامام الصادق لم يكن اختلافا فكريا عقائديا فحسب، بل كان اختلافا يستمد وجوده من محتواه الهجومي المعارض أيضا.

أهم أبعاد هذا المحتوى إنبات خواء الجهاز الحاكم وفراغه من كل مضمون ديني وعجزه عن ادارة الشؤون الفكرية للأمة، وبعبارة أخرى عدم صلاحيته للتصدي لمنصب «الخلافة» والبعد الأخر تشخيص موارد التحريف في الفقه الرسمي... هذه التحريفات القائمة على أساس فكر «مصلحي» في بيان الاحكام الفقهية ومداهنة الفقهاء للجهاز الحاكم. والامام الصادق عليه السلام بنشاطه العلمي وتصديه لبيان أحكام الفقه والمعارف

الاسلامية وتفسير القرآن بطريقة تختلف عن طريقة وعاظ السلاطين قد اتخذ عملياً موقف المعارضة تجاه الجهاز الحاكم. الامام بنشاطه هذا قد يلغي كل الجهاز الديني والفقهي الرسمي الذي يشكل أحد أضلاع حكومة الخلفاء، ويفرغ الجهاز الحاكم من محتواه الديني.

ليس بأيدينا سند ثابت يبين التفات الجهاز الاموي الى هذا المحتوى المعارض لما قام به الامام الصادق ﷺ من نشاط علمي فقهي. ولكن أغلب الظن أن الجهاز الحاكم العباسي وخاصة في زمن المنصور الذي كان يتمتع بحنكة وذكاء وتجربة اكتسبها من صراعه السياسي الطويل مع الحكم الاموي قبل وصوله الى السلطة. كان يعي المسائل الدقيقة في نشاطات البيت العلوي. وكان الجهاز الحاكم العباسي يفهم الدور الفاعل الذي يستطيع أن يؤديه هذا النشاط العلمي بشكل غير مباشر.

والتهديدات والضغوط والمضايقات التي كانت تحيط بنشاطات الامام الصادق ﷺ التعليمية والفقهية من قبل المنصور المنقولة الينا في روايات تاريخية كثيرة ناتجة من هذا الالتفات الى حساسية المسألة. وهكذا اهتمام المنصور بجمع الفقهاء المشهورين في الحجاز والعراق في مقر حكومته ـ كما تدل على ذلك النصوص التاريخية العديدة ـ فانهُ ناشيء عن هذا الالتفات أيضاً.

في حديث الامام وتعاليمه لاصحابه ومقربيه كان يستند الى «خواء الخلفاء وجهلهم» ليستدل على أنهم في نظر الاسلام لا يحق لهم أن يحكموا ونحن نشهد هذا المضمون الهجومي على الجهاز الحاكم بوضوح وصراحة في

دروسه الفقهية.

يروى عنه قوله عليه السلام: «نحن قوم فرض الله طاعتنا وانتم تأتمّون بمن لا يُعذر الناس بجهالته»[١].

أي إن الناس انحرفوا بسبب جهل حكامهم وولاة امورهم، وسلكوا سبيلا غير سبيل الله. وهؤلاء غير معذورين لدى الله. لأن اطاعة هؤلاء الحكام كان عملا انحرافيا. فلا يُبرر ما يستتبعه من وقوع في الانحرافات[٢].

في تعليمات الأئمة عليهم السلام قبل الامام الصادق وبعده نرى أيضا تركيزا على ضرورة اقتران القيادة السياسية بالقيادة الفكرية والايديولوجية. ففي رواية عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن جدّه الامام محمد الباقر عليه السلام قال: إنما مثل السلاح فينا مثل التابوت في بني اسرائيل. أينما دار التابوت دارالملك (تأمل بدقة المعنى الرمزي في التعبير) وأينما دار السلاح فينا دار العلم.. وفي رواية أخرى: حيثما دار السلاح فينا فثمَّ الامرُ (الحكم)[٣].

ويسأل الراوي الامام: فيكون السلاح مزايلاً (مفارقاً) للعلم؟

قال الامام: لا. أي إن قيادة المجتمع المسلم يجب أن تكون في من بيده السلاح والعلم معاً.

الامام إذن يرى أن علم الدين وفهم القرآن بشكل صحيح شرط من

---

١ - الكافي ١: ١٨٦، ح ٣.

٢ - القرآن الكريم يدين ايضا باساليب متعددة هذا اللون من الاتّباع المؤدي الى الضلال، ويردّ كل عذر يتوسل به التابعون في انحرافهم. راجع سورة البقرة: ١٦٧، الشعراء: ٩٦ - ١٠٢، سبأ: ٣١ - ٣٣، النساء: ٩٧.

٣ - الكافي ١: ٢٣٨.

شروط الامامة. ومن جهة أخرى فهو بنشاطه العلمي وجمع عدد غفير من مشتاقي علوم الدين حوله، وتعليمه الدين بشكل يختلف تماما عن الطريقة المعتادة لدى العلماء والمحدثين والمفسرين المرتبطين بجهاز الخلافة، يثبت عمليا أصالة المحتوى الديني لمدرسته وزيف الظاهر الديني الذي يستقمصه جهاز الخلافة ومن لف لفه من علماء بلاطه. وعن هذا الطريق المهاجم المتواصل العميق الهادىء يضفي على جهاده بعداً جديداً.

وكما ذكرنا من قبل، فان الحكام العباسيين الاوائل الذين قضوا سنين طوالاً قبل تسلمهم السلطة في نفس أجواء الجهاد العلوي والى جانب انصار العلويين، كانوا على علم بكثير من الخطط والمنعطفات، وكانوا متفهمين للدور التهاجمي الذي يؤديه هذا النشاط في الفقه والحديث والتفسير أكثر من أسلافهم الامويين. وقد يكون هذا السبب هو الذي دفع المنصور العباسي في مواجهاته مع الامام الصادق عليه السلام أن يمنع الامام زمنا من الجلوس في حلقات التدريس وعن تردد الناس عليه. حتى إن المفضل بن عمر يقول: «ان المنصور قد كان همّ بقتل ابي عبدالله عليه السلام غير مرة فكان اذا بعث اليه ودعاه ليقتله فاذا نظر اليه هابه ولم يقتله غير انه منع الناس عنه ومنعهُ من القعود للناس واستقصىٰ عليه اشد الاستقصاء حتى انه كان يقع لاحدهم مسألة في دينه في نكاح أو طلاق أو غير ذلك فلا يكون علم ذلك عندهم ولا يصلون اليه فيعتزل الرجل وأهله. فشق ذلك على شيعته وصعب عليهم...»[1].

---

١ - المناقب، ابن شهر آشوب ٤: ٢٣٨، ط: بيروت.

٣ ـ إقامة تنظيم سري سياسي ـ ايديولوجي

مر بنا أن الامام الصادق ﷺ قاد في أواخر العصر الاموي شبكة إعلامية واسعة استهدفت الدعوة الى إمامة آل علي ﷺ وتبيين مسألة الامامة بشكلها الصحيح، وهذه الشبكة نهضت بدور مثمر وملحوظ في أقاصي بقاع العالم الاسلامي وخاصة في عراق العرب وخراسان لنشر مفاهيم الامامة.

ونشير هنا الى جانب صغير من هذه المسألة. مسألة التنظيمات السرية في الحياة السياسية للامام الصادق ﷺ وباقي الأئمة من أهم المسائل واكثرها حساسية، وهي في الوقت نفسه من أغمض فصول حياتهم وأشدها ابهاما. وكما ذكرنا لا يمكن أن نتوقع وجود وثائق صريحة في هذا المجال، حيث لا يمكن أن نتوقع من الامام أو أحد أصحابه أن يعترف صراحة بوجود هذه التنظيمات السياسية ـ الفكرية. فهذا مما لا يمكن الكشف عنه. الشيء المعقول هو أن الامام ينفي بشدّة وجود مثل هذا التنظيم السري، وهكذا أصحابه ويعتبرون ذلك تهمة وسوء ظن فيما لو تعرّضوا لاستجواب جهاز السلطة. هذه هي خاصية العمل السري، والباحث في حياة الأئمة ايضا من حقّه أن لا يقتنع بوجود مثل هذا التنظيم دون دليل مقنع. اذن فلابد أن نبحث عن القرائن والشواهد والحوادث التي تبدو بسيطة لا تلفت نظر المطالع العادي، لنبحث عن دلالاتها في هذا المجال، بهذا اللون من التدقيق في حياة الأئمة خلال قرنين ونصف القرن من حياتهم يستطيع الباحث أن يطمئن الى وجود مثل هذه التنظيمات التي تعمل تحت قيادة الأئمة.

ما المقصود بالتنظيم؟ ليس المقصود به طبعا حزبا منظماً بالمفهوم المعروف اليوم، ولا يعني وجود كوادر منظمة ذات قيادات اقليمية مرتبطة ارتباطا هرميا. فلم يكن شيء من هذا موجودا ولا يمكن أن يوجد. المقصود بالتنظيم وجود جماعة بشرية ذات هدف مشترك تقوم بنشاطات متنوعة تتجه نحو ذلك الهدف وترتبط بمركز واحد وقلب نابض واحد ودماغ مفكر واحد، وتسود بين أفرادها روابط عاطفية مشتركة.

هذه الجماعة كانت في زمن علي ﷺ (أي خلال السنوات الخمس والعشرين بين وفاة الرسول الاكرم وبيعته للخلافة) كان يجمعها الايمان بأحقية الامام علي ﷺ في الخلافة، وكانت تعلن وفاءها الفكري والسياسي للامام، غير أنها كانت تحذو حذو علي ﷺ في عدم إثارة ما يزلزل المجتمع الاسلامي الوليد، كما كانت تنهض بما كان ينهض به الامام علي في تلك السنوات من مهام رسالية تستهدف صيانة الاسلام ونشره ومحاولة الحدّ من الانحرافات. واتخذت لولائها هذا اسم «شيعة علي». ومن وجوههم المشهورة: سلمان وعمار وابو ذر وابي بن كعب والمقداد وحذيفة وغيرهم من الصحابة الاجلاء.

ولدينا شواهد تاريخية تثبت أن هؤلاء كانوا يشيعون بين الناس فكرهم بشأن إمامة علي ﷺ بشكل حكيم. وعملهم هذا كان مقدمة لالتفات الناس حول الامام واقامة الحكم العلوي.

بعد أن استلم الامام علي مقاليد الامور سنة ٣٥ هـ كان حول الامام علي صنفان من الناس. صنف عرف الامام ومكانته وفهم معنى الامامة وآمن

بها، وهم شيعته الذين تربوا على يد الامام بشكل مباشر أو غير مباشر، وعامة الناس الذين عاشوا أجواء تربية الامام ونهجه ولكنهم لم يكونوا مرتبطين فكريا وروحيا بالجماعة التي رباها الامام تربية خاصة.

ولذلك نجد بين اتباع الامام صنفين من الافراد بينهما تفاوت كبير. صنف يضم عمارا ومالكا الاشتر وحجرَ بن عدي وسهلَ بن حنيف وقيسَ بن سعد وامثالهم، وصنف من مثل ابي موسى الاشعري وزياد بن أبيه ونظرائهم.

بعد حادثة صلح الامام الحسن ﷺ كانت الخطوة الهامة التي اتخذها الامام نشر فكر مدرسة اهل البيت ولمّ شتات الموالين لهذا الفكر، إذ اتيحت الفرصة لحركة أوسع بسبب اضطهاد السلطة الاموية، وهكذا كان دائماً، فالاضطهاد يؤدي الى انسجام القوى المضطهدة وتلاحمها وتجذرها بدل تبعثرها وتشتتها. واتجهت استراتيجية الامام الحسن ﷺ الىٰ تجميع القوى الاصيلة الموالية، وحفظها من بطش الجهاز الاموي، ونشر الفكر الاسلامي الاصيل في دائرة محدودة ولكن بشكل عميق، وكسب الافراد الى صفوف الموالين وانتظار الفرصة المؤاتية للثورة على النظام وتفجير أركانه واحلال الحكم العلوي مكانه.. وهذه الاستراتيجية في العمل هي التي جعلت الامام الحسن امام خيار واحد وهو الصلح.

ومن هنا نرى أن جمعاً من الشيعة برآسة مسيب بن نجبة وسليمان بن صرد الخزاعي يقدمون على الامام الحسن بعد حادثة الصلح في المدينة حيث اتخذها الامام قاعدة لعمله الفكري والسياسي بعد عودته من الكوفة، ويقترحون عليه إعادة قواهم وتنظيماتهم العسكرية والاستيلاء على الكوفة

والاشتباك مع جيش الشام، والامام يستدعي هذين الاثنين من بين الجمع ويختلي بهما ويحدثهما بحديث لا نعرف فحواه، يخرجان بعده بقناعة تامة بعدم جدوى هذه الخطة. وحين يعود الاثنان الى من جاء معهما يفهمانهم باقتضاب أن الثورة المسلحة مرفوضة ولابد من العودة الى الكوفة لاستئناف نشاط جديد فيها[١].

هذه حادثة مهمة لها دلالات كبيرة حدت ببعض المؤرخين المعاصرين الى اعتبار ذلك المجلس الحجر الاساس في إقامة التنظيم الشيعي.

والواقع أن الخطوة الاولى لاقامة التنظيم الشيعي لو كانت حقا قد اتخذت في ذلك اللقاء بين الامام الحسن عليه السلام والرجلين القادمين من العراق، فان مثل هذه الخطوة قد أوصى بها الامام عليه السلام من قبل حين أوصى المقربين من اصحابه بقوله: «لو قد فقدتموني لرأيتم بعدي أشياء يتمنّى أحدكم الموت مما يرى من الجور والعدوان والأثرة والاستخفاف بحق الله والخوف على نفسه، فاذا كان ذلك:

- فاعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا..
- وعليكم بالصبر والصلاة.
- والتقية.

واعلموا أن الله عزّوجل يبغض من عباده (التلوّن) لاتزولوا عن (الحق

---

١ - نفس المعنى جاء في كتاب الشيخ راضي آل ياسين صلح الحسن عليه السلام: ٣١ - ٣٢ ط: بيروت.

واهله) فان من استبدل بنا هلك، وفاتته الدنيا وخرج منها آثما»[١]

هذا النص الذي يرسم بوضوح الوضع المأساوي في العصر الاموي، ويوجه المؤمنين الى التلاحم والتعاضد والتنسيق والانسجام يعتبر أروع وثيقة من وثائق الجهاز التنظيمي في حركة آل البيت عليهم السلام وهذا المشروع التنظيمي يتبلور في شكله العملي في اللقاء بين الامام الحسن عليه السلام واثنين من الشيعة الخلّص. ومما لا شك فيه أن أتباع أهل البيت لم يكونوا جميعا مطلعين على هذا المشروع الدقيق. ولعل هذا يبرر ما كان يصدر من بعض صحابة الامام الحسن عليه السلام من اعتراض وانتقاد. وكان المعترضون يواجهون قول الامام ما مضمونه: «... من يدري، لعله اختبار لكم ونفع زائل لاعدائكم...».

وفي هذه الاجابة إشارة خفية الى سياسة الامام وتدبيره[٢].

خلال الاعوام العشرين من حكومة معاوية بكل ما احاط فيها البيت العلوي من إعلام مكثف مضاد بلغ درجة لعن الامام أمير المؤمنين عليه السلام على منابر المسلمين، وبكل ما شهدتها من انسحاب الامامين الحسن والحسين عليهما السلام من ساحة النشاط العلني المشهود، لا نرى سببا في انتشار فكر أهل البيت واتساع القاعدة الشيعية في الحجاز والعراق سوى وجود هذا التنظيم ولنلقِ نظرة على الساحة الفكرية في هذه المناطق بعد عشرين عاما

---

١ - تحف العقول: ١١٥ ط ٢.

٢ - هذا الوضع يمكن مقارنته وتشبيهه الى حد ما بوضع المجتمعات المعاصرة التي تحكمها الانظمة الحزبية.

من صلح الامام الحسن عليه السلام.

في الكوفة نرى رجال الشيعة من ابرز الوجوه وأشهرها. وفي مكة والمدينة بل وفي المناطق النائية نرى أتباع أهل البيت مثل حلقات مترابطة يعرف بعضها ما يلم بالبعض الآخر.

حين يستشهد بعد اعوام أحد رجال الشيعة وهو «حجر بن عدي» ترتفع أصوات الاعتراض في مناطق عديدة من البلاد الاسلامية رغم الارهاب المفروض على كل مكان، ويبلغ الحزن والاسى بشخصية معروفة في خراسان أن يموت كمدا بعد إعلان الاعتراض الغاصب[1].

وبعد موت معاوية ترد على الامام الحسين عليه السلام آلاف الرسائل تدعوه أن يأتي الى الكوفة لقيادة الثورة. وبعد استشهاد الامام يلتحق عشرات الآلاف بمجموعة «التوابين»، أو ينخرطون في جيش المختار وابراهيم بن مالك ضد الحكم الاموي.

ومن حق الباحث في التاريخ الاسلامي أن يسأل عن العوامل الكامنة وراء شيوع هذا الفكر والتحرك الموالي لآل البيت عليهم السلام هل يمكن أن يتم دون وجود نشاط مكثف محسوب منظم متحد في الخطة والهدف؟!

الجواب: لا طبعا. فالاعلام الهائل الذي وجهته السلطة الاموية عن طريق مئات القضاة والولاة والخطباء لا يمكن احباطه وإفشاله دون إعلام

---

١ ـ مات الربيع بن زياد الحارثي غماً لمقتل حجر، وذكر لذلك ابن الاثير في الكامل: ٣: ١٩٥، وكان سبب موته سخط قتل حجر بن عدي.. وذكر ذلك في الاستيعاب واسد الغابة والدرجات الرفيعة وغيرها. صلح الحسن عليه السلام: ٣٣٨.

مضاد مخطط مرسوم ينهض به تنظيم منسجم موحّد غير مكشوف. وقبيل وفاة معاوية تزايد نشاط هذا الجهاز العلوي المنظم وتصاعدت سرعة عمله. حتى إن والي المدينة يكتب الى معاوية ما مضمونه: «اما بعد فان عمر بن عثمان (عيّن والي المدينة على الحسين عليه السلام) اخبرنا بان رجالاً من العراق وبعض شخصيات الحجاز يترددون على الحسين بن علي وتدور بينهم احاديث حول رفع راية التمرد والعصيان... فاكتبوا لنا ماذا ترون»[1].

بعد واقعة كربلاء وشهادة الحسين عليه السلام تضاعف النشاط التنظيمي لشيعة العراق على أثر الصدمة النفسية التي أُصيبوا بها في مقتل الحسين، حيث بوغتوا بهذه الجريمة التي سلبتهم قدرة الالتحاق بركب الحسين وأهل بيته في كربلاء.

وكان هذا التحرك مؤطراً بالالم والحسرة والاسف.

يقول الطبري: فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها الى الطلب بدم الحسين فكان يجيبهم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر. فلم يزالوا كذلك حتى مات يزيد بن معاوية[2].

وحقا ما تقوله مؤلفة جهاد الشيعة إذ تعلق على قول الطبري بالقول:

وظهرت جماعة الشيعة بعد مقتل الحسين كجماعة منظمة، تربطها روابط سياسية وآراء دينية، لها اجتماعاتها وزعماؤها ثم لها قواتها العسكرية،

---

١ ـ ثورة الحسين عليه السلام، ١١٨، نقلاً عن اعيان الشيعة والاخبار الطوال.

٢ ـ الطبري ٧: ٤٦، نقلاً عن د. سميرة مختار الليثي، جهاد الشيعة: ٢٨.

وكانت جماعة «التوابين» اول مظهر لذلك كله[١].

ويبدو من دراسة أحداث التاريخ ورأي المؤرخين في تلك البرهة الزمنية أن الشيعة كانوا يتولون مسؤولية القيادة والتخطيط، أما القاعدة العريضة الساخطة على بني امية فكانت أوسع من المجموعة الشيعية المنظمة، وكانت هذه القاعدة تنضمُ الى كل حركة ذات صبغة شيعية.

من هنا فان المتحركين ضد بني امية، وإن رفعوا شعارات شيعية، لا ينبغي أن نتصورهم جميعاً بأنهم في عداد الشيعة أي في عداد الجهاز التنظيمي لائمة أهل البيت.

إنطلاقاً مما سبق أود التأكيد على أن اسم الشيعة بعد شهادة الامام الحسين (عليه السلام) أُطلق فقط على المجموعة التي كانت لها علاقة وثيقة بالامام الحق تماماً كما كان الحال في زمن امير المؤمنين (عليه السلام).

هذه المجموعة هي التي عمدت بعد صلح الامام الحسن الى تأسيس التنظيم الشيعي بأمر الامام، وهي التي نشطت في كسب الافراد الى التنظيم ودفع أفراد اكثر، لم يرتفعوا في الفكر والنضج العملي الى مستوى الانخراط في التنظيم، نحو التيار العام للحركة الشيعية.

والرواية التي اوردناها عن الامام الصادق (عليه السلام) في بداية هذا الحديث والتي تذكر أن عدد المؤمنين بعد حادثة عاشوراء لم يتجاوز الثلاثة أو الخمسة إنما تقصد أفراد هذه المجموعة الخاصة.. أي هؤلاء الذين كان لهم الدور الرائد الواعي في مسيرة حركة التكامل الثورية العلوية.

---

١ - د. سميرة الليثي، جهاد الشيعة: ٢٧.

وعلى اثر النشاط المتستر الهادىء الذي قام به الامام السجاد عليه السلام توسعت قاعدة هذه المجموعة، والى هذا يشير الامام الصادق في الرواية المذكورة: «ثم لحق الناس وكثروا». وسنرى أن عصر الامام السجاد والامام الباقر والامام الصادق عليهم السلام شهد تحرك هذا الجمع تحركا اثار الرعب والفزع في قلوب الحكام الظالمين، ودفع هؤلاء الحكام الى ردود فعل قاسية.

وبعبارة موجزة فان اسم الشيعة في القرنين الاول والثاني الهجريين وفي زمن الائمة عليهم السلام ما كان يُطلق على عامة محبي أهل البيت عليهم السلام أو المؤمنين فقط بحقهم وبصدق دعوتهم من دون اشتراك في مسيرتهم الحركية. بل إن الشيعة كانوا يتميزون بشرط أساسي وحتمي وهو عبارة عن الارتباط الفكري والعملي بالامام والاشتراك في النشاط الفكري والسياسي، بل والعسكري الذي يقوده لإعادة الحق الى نصابه واقامة النظام العلوي الاسلامي. هذا الارتباط هو نفسه الذي يطلق عليه قاموس التشيع اسم «الولاية».

جماعة الشيعة كانت تطلق في الواقع على أعضاء حزب الامامة.. هذا الحزب كان يتحرك بقيادة الامام، وكان يتخذ من الاستتار والتقية خندقا له مثل كل الاحزاب والتنظيمات المضطهدة التي تعيش في جو الارهاب. هذه خلاصة النظرة الواقعية لحياة الأئمة، وخاصةً الامام الصادق عليه السلام. وكما ذكرنا من قبل لا يمكن أن يكون لمثل هذه المسألة دلائل صريحة، إذ لا يمكن أن نتوقع من بيت سرّي أن يحمل لافتة تقول: «هذا بيت سرّي»! وكذلك لا يمكن أن نطمئن الى النتيجة دون قرائن حاسمة.

من هنا ينبغي أن نتتبّع القرائن والشواهد والاشارات.

من العبارات العميقة التي تلفت نظر الباحث المدقق في الروايات المرتبطة بحياة الائمة، أو في كلام مؤلفي القرون الاسلامية الاولى، عبارة «باب» و«وكيل» و«صاحب السر» وهي عبارات تطلق على بعض اصحاب الائمة. ابن شهر آشوب المحدث الشيعي الشهير مثلاً يقول في سيرة الامام السجاد عليه السلام: «وكان بابه يحيى بن ام الطويل» وفي سيرة الامام الباقر عليه السلام: «وكان بابه جابر بن يزيد الجعفي»، وفي ترجمة الامام الصادق عليه السلام يقول: «وكان بابه محمد بن سنان». وفي «رجال الكشي» ترد حول زرارة وبريد ومحمد بن مسلم وابي بصير عبارة: «مستودع سرّي». وفي كتب الحديث تروى عن الامام الصادق عليه السلام عبارة «وكيل» بشأن المعلى بن خنيس. وكل واحد من هذه التعبيرات، إن لم تكن صادرة عن الامام، فانها دون شك حصيلة دراسة موسعة في حياة الائمة نهض بها المؤلفون الشيعة القدامى، واختيار هذه التعبيرات على أي حال ينطلق من معالم بارزة في حياة أئمة اهل البيت عليهم السلام.

ولو تأملنا في هذه التعبيرات لألفينا أن كل واحد منها يدل على وجود جهاز فعّال مستتر وراء النشاط الظاهري للائمة.

مستودع السر

إذا لم يكن لأحد «سرّ» فليس له مستودع سر. فما هو هذا السر في حياة الائمة؟ ما هذا الذي لا يتحمله أصحاب الائمة عامة، بل ثمة نفر معدود له

لياقة وصلاحية تحمّله، وبذلك نال شَرفَ اسم «مستودع السر»؟!

ولقد راحت الذهنية المتأخرة البعيدة عن واقع الاحداث وتمحيصها تفسر هذا السر بانه «سر الامامة». كما راحت تفسر سرّ الامامة بأنه الاسرار الغيبية والقدرة على الخوارق والمعاجز.

أنا أؤمن بقدرة هذه الصفوة المقدسة من أهل البيت الذين اختارهم الله لمواصلة مهمة حمل الرسالة وتبليغها بعد رسول الله أن يحملوا مثل هذه القدرة ومثل هذه العلوم. كما أؤمن بأن تحليهم بهذه القوى والعلوم لا يتنافى أصلاً مع نظرة الاسلام الى الانسان والنواميس الطبيعية وسنن الكون. ولكن هذه القوى والعلوم ليست هي «سر الامام». فمثل هذه القوى والعلوم أوضح دليل على الامامة وعلى صدق دعوى الامام. لماذا يكتم الامام هذه الامور ويوصي اصحابه بكتمانها في روايات كثيرة تضافرت حتى أصبحت الكتب الحديثية الشيعية تتضمن بابا يحمل عنوان: «باب الكتمان»؟[1] لابد أن يكون هذا السرّ مما لو شاع لشكل خطراً كبيراً على الامام وأصحابه، وهذا شيء غير الغيبيات والخوارق.

هل السرّ هو معارف أهل البيت؟ هل هو رؤية مدرسة أهل البيت للاسلام وفقهه وأحكامه؟ لا ننكر أن معارف مدرسة أهل البيت كانت تنشر في عصر الاضطهاد الاموي والعباسي وفق منهج الحكمة والتدبير لكي لا يخوض فيها كلّ من هبّ ودبّ. ولكن هذه المعارف لا يمكن أن تكون هي سرّ الامام. فمع كل ما أحاط بهذه المعارف من اختصاص كانت تدرس في

---

١ - رجال الكشي: ٣٨٠ ط مصطفوي.

مئات الحوزات الفقهية والحديثية في عدد من كبريات مدن الصقع الاسلامي آنذاك. كان الشيعة يتناقلون هذه المعارف ويشرحونها ويتداولونها. بعبارة أخرى كانت هذه المعارف خاصة لا سريّة.

واختصاصها يعني أن رواجها كان محدودا بالدائرة الشيعية، لكنها كانت تصل الى غير الشيعة أيضا في ظروف خاصة.لم تكن ابدا محدودة بأفراد معدودين من أصحاب الأئمة وخافية على غيرهم

الحق أن الاسرار هي ما يتعلق بالمعلومات المرتبطة بالجهاز التنظيمي للامام.. بالجهاز الذي يخوض معتركا سياسيا باتجاه هدف ثوري.. بالتكتيك الذي ينتهج الجهاز... بالعمليات التي ينفذها.. باسماء ومهام اعضاء الجهاز.. بمصادر التمويل.. بالاخبار والتقارير المتعلقة بالاحداث الهامة... هذه وأمثالها من الاسرار التي لا يجوز أن يطلع عليها سوى القائد والكوادر المسؤولية. ربما تحين الظروف المناسبة عاجلا أم آجلا لاعلان هذه الاسرار وكشفها، ولكن قبل أن تحين تلك الظروف لا يمكن أن يطلع على هذه الاسرار سوى من يرتبط عمله مباشرة بها وهم «مستودع السر». وكل تسريب لهذه المعلومات الى أوساط الشيعة فانه يفتح ثغرة تسريها الى الاعداء. وهو خطأ كبير لا يغتفر. خطأ قد يؤدي الى انهدام الجهود والاعمال والمجموعة المنتظمة. ومن هنا نفهم ما يعنيه الامام إذ يقول: «ليس الناصب لنا حرباً بأعظم مؤنة علينا من المذيع علينا سرّنا. فمن اذاع سرّنا الى غير اهله لم يفارق الدنيا حتى يعضهُ السلاح»[1].

---

١ – رجال الكشي: ٣٨٠ ط مصطفوي.

الباب والوكيل

في الارتباطات السرية بين الامام والشيعة قد يتطلب الامر ايصال بعض المعلومات الى الشيعة عن طريق «واسطة» وهذا تدبير معقول وطبيعي، العيون المتلصصة على كشف ارتباطات الامام ﷺ تترصّد التقاءاته بأتباعه في موسم الحج في مكة والمدينة حين تؤمها القوافل من أقاصي العالم. وقد يؤدي رصد هذه اللقاءات الى اكتشاف خيوط الجهاز المركزي لتنظيم الامام. لذلك نرى أن الامام كان يُبعد عنه بعض الافراد بلهجة لينة أحيانا ومعاتبة تارة أخرى، يقول لسفيان الثوري مثلاً: «أنت رجل مطلوب وللسلطان علينا عيون فاخرج عنا غير مطرود»[١].

ويترحّم الامام على شخص صادفه في الطريق وأعرض بوجهه عنه، ويذم شخصا آخر رآه في ظروف مشابهة فسلم عليه باحترام واجلال»[٢].

مثل هذه الظروف تستلزم وجود فرد يكون واسطة بين الامام وبين من يحتاج الى معلومات تصل اليه من الامام. وهذا الواسطة هو «الباب». ويجب أن يكون من أخلص أتباع الامام، وأقربهم اليه، وأغناهم بالمعلومات والخطط. يجب أن يكون مثل «نحلة» إذا عرفت الحشرات المضرّة ما تحملهُ من عسل قَطّعتها وأغارت على شهدها[٣]. وليس صدفة أن نرى تعرض

---

١ - مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٢٤٨.

٢ - الكافي ٢: ٢١٩.

٣ - هذا التعبير مقتبس من أحد نصوص الامام ﷺ.

هؤلاء «الابرياء» تمامًا للمطاردة واقتناء ألوان البطش والتنكيل.

إن يحيىٰ بن ام الطويل «باب» الامام السجاد عليه السلام يُقتل بشكل شنيع[1] وجابر بن يزيد الجعفي باب الامام الباقر عليه السلام يتظاهرون بالجنون ويشيع عنه ذلك فينجّيه من القتل الذي صدر الامر به من الخليفة قبل أيام من اشتهار جنونه. محمد بن سنان، باب الامام الصادق عليه السلام، يتعرض لطرد ظاهري من الامام رغم أن الامام أبدى رضاه عنه في مواضع أخرى وأثنى عليه. وما ذلك إلّا لتعرض محمّد بن سنان لمثل هذه الاخطار. إعلان الامام براءته من راوٍ ومعروف مشهور حظي باعلان رضا الامام مرارا يعود على الاقوىٰ الى تكتيك تنظيمي.

مثل هذا المصير يواجهه «الوكيل» أيضا، مسؤول جمع الأموال المرتبطة بالامام وتوزيعها يملك أيضا كثيرا من الاسرار وأقلها اسماء الدافعين والقابضين. وليست هذه المعلومات بالتي يستهين بها أعداء الامام. وأفضل دليل على ذلك مصير المعلىٰ بن خنيس وكيل الامام الصادق في المدينة، وتعبيرات الامام القائمة على أساس التقية بشأن المفضل بن عمر وكيل الامام في الكوفة.

هذه العناوين الثلاثة (الباب، الوكيل، صاحب السر) التي نجد مصاديقها في وجوه بارزة من رجال الشيعة تلقي ظلالا على واقع الشيعة وارتباطهم بالامام والحركة التنظيمية الشيعية.

---

١ – قطعت رجله وهو حي ثم قتل. للتعرف على هذه الشخصية الكبيرة راجع: رجال الكشي وسائر كتب الرجال.

يمكننا بهذه النظرة أن نفهم الشيعة بأنهم مجموعة من العناصر المنسجمة الهادفة النشطة المتمركزة حول محور مقدَّس يشعّ بتعاليمه وأوامره على القاعدة، والقاعدة ترتبط به وتنقل اليه المعلومات وتضبط مشاعرها وتسيطر على عواطفها بنوصياته الحكيمة، وتلتزم التزاما دينياً بأساليب العمل السرّي مثل حفظ الاسرار، وقلة الكلام، والابتعاد عن الاضواء والتعاون الجماعي والزهد الثوري.

• • •

بمناسبة الاجتماع الثاني للهيئة العامة
للمجمع العالمي لأهل البيت (ع)

العنوان: الجمهورية الاسلامية في ايران / قم
ص.ب: ٣٧١٨٥/٨٧٣
ISBN 964-472-103-9

N. – 76 – 204